

المساواة في شريعة الإسلام وأثرها في الروابط الاجتماعية-قراءة فقهية تحليلية معاصرة

علي محمد عبدالله الأشموري*

قسم علوم القرآن، جامعة عمران، عمران، اليمن

الملخص:

في هذا البحث يحاول الباحث أن يسهم برؤية لأهمية المساواة مدعومة بالنصوص المعصومة بالقرآن والسنة التي تكفل للإنسانية العيش المشترك، والبناء الحضاري المتراقي في الكمالات ليحقق الاستخلاف الالهي للإنسان في هذا الكوكب الذي يحتوي على الخيرات والنعم التي تجعل من الإنسان إنساناً محورياً في هذا الوجود من خلال المشروع الإلهي الذي رتب حركة المخلوق بناءً على التوحيد المطلق لله، والمساواة ونسخ الألوهية البشرية وإيقاف تسلط الانسان على أخيه الإنسان الذي تشتد الحاجة إليه أكثر فأكثر من أي وقت مضى، بعد أن صار العالم قرية واحدة. حيث كثرت الانتهاكات الفاضحة لحقوق الانسان والفلسفات المنحازة لصالح الهيمنة والتسلط والإقصاء والتمهيش، لهذا يجب إبراز المنهج القرآني والحديث النبوي في التحرير والتغيير، ودور الايمان بالله الواحد في تحقيق المساواة أساس حقوق الانسان، واستشعار المسؤولية تجاه كرامة الإنسان حيثما كان وبناء انسان الفكرة المنتج ليكون البديل عن إنسان الغريزة المستهلك، تلك الغريزة التي كانت السبب الرئيس في التيه المتلاحق عبر قرون عديدة للإنسان البشري المكرم من الله، ذلك أن خلود القيم الإنسانية يعني القدرة على الانتاج في كل زمان ومكان، وتوليد رؤى قادرة على انتشال الإنسان من أزمتة، وتخليصه من الانشطار الثقافي.

الكلمات الاستدلالية: المساواة، القرآن، السنة، الانسان، القيم الإنسانية.

Abstract: In this research, the researcher tries to contribute a vision of the importance of equality supported by the infallible texts of the Qur'an and the Sunnah that guarantee humanity of coexistence, and a progressive civilization building in perfection to achieve the divine alliance of man in this planet that contains the good things and blessings that make the human being a pivotal person in this existence through the project. The divine who arranged the movement of the creature based on the absolute monotheism of God, equality and copying of human divinity, and stopping the domination of man over his fellow man, which is needed more and more than ever before after the world became one village. As flagrant violations of human rights and philosophies biased in favor of domination, domination, exclusion and marginalization have abounded. This is why the Qur'anic approach, the prophetic hadith in liberation and change, and the role of faith in the One God in achieving equality is the basis of human rights, and feeling the responsibility towards the dignity of the human being where it was and build the human being the productive idea To be a substitute for the human being the consuming instinct, which was the main reason for the successive wandering of the human being honored by God over many centuries, because the immortality of human values means the ability to produce in every time and place, and to generate visions capable of rescuing man from his crisis, and ridding him of cultural fission.

مقدمة:

الحمد لله الذي جعل الإنسانية منحدره من أسرة واحدة، قال تعالى «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [سورة الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً» [النساء: ١].

والصلاة والسلام على رسول الإنسانية القائل: «الناس لآدم وآدم من تراب» (أبو داود رقم ٣٩٥٥) وقال أيضاً: «الناس سواسية كأسنان المشط» (سبل السلام ص ١٠٠٧، وله شواهد بألفاظ تفيد هذا المعنى) وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار وبعد:

إن الإيمان بوحدة الأصل الانساني هو السبيل الوحيد لإلغاء الفوارق القسرية كاللون والقوم والجنس، وإيقاف التمييز العنصري، ومنح الناس المساواة المتأتية من أصل الخلق، وهي أساس الحقوق جميعاً، ووسيلة تحقيق الكرامة الإنسانية، ومنحهم الفرص المتكافئة، بحيث يصير ميزان الكرامة التقوى والعمل الصالح.

وفي هذا بحث -مساهمة- حول المساواة في الشرع الاسلامي بناء على أن المساواة منطلق للمجتمع وللإنسانية في فضاء الله الواسع بكل همة وسعادة وتكاتف وتعايش يعكس نفسه إيجاباً بالأمن والاستقرار في جميع مناحي الحياة، ينتج عنه المدينة الفاضلة التي يحلم بها كل كائن بشري، وهو قانون الله الذي أراده لعباده مشروعاً إلهياً يستوعب الزمن والمكان، قال تعالى: « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » [سورة الإسراء: ٩].

إلا أن الذي يؤسف له أن واقع الأمة يختلف عن قانون الله، فهو نظرية يفتقد للتطبيق، وهو ما دفعني لهذا البحث، والعالم اليوم يموج في أوضاع مؤسفة من الصراعات والمنازعات والشورور، وتتتابه حالات مفزعة من الاضطرابات والفتن وحروب الإرهاب الدموي المدمر، وتمزق الأهواء دولاً وعصابات وطوائف، وتعصف به الإيدلوجيات المتناحرة في كل اتجاه وتورده القيم الزائفة المهالك، وتسيطر عليه البدع (العرقية) فتفقد صوابه، وتعمي بصره، وتصم أذنه، وتقتل فيه كل معنى جميل، فتتشب الحروب أظفارها، وتسعر الفتن نارها، فتسال الدماء وتزهق الأرواح، وتنتهك الحرمات، وتسلب الحقوق، ويحل التمزق محل التماسك، والكره محل الوثام، والخوف محل الأمن، والخيانة محل الأمانة، والريب محل الثقة، والفوضى محل النظام، والإفساد محل الصلاح، والتدمير محل الإعمار.

سبب اختيار الموضوع:

١- الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وضع لا يحسد عليه؛ فرق، وجماعات، وطوائف، وحزبيات متفرقة، وهذا الموضوع محاولة لبث روح الإخاء الإسلامي الذي ساوى بين أبناء الإسلام، على اختلاف أجناسهم وألوانهم.

٢- توجه قيادة الثورة بعد ثورة ٢١ سبتمبر على دمج المهتمشين في أوساط الشعب، وبدون تمييز عملاً بقوله تعالى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [سورة الحجرات: ١٣].

٣- بروز ثقافة العدو الذي يريد احتلال بلاد المسلمين، لاسيما في الوطن العربي من جديد عبر الحرب الناعمة التي يثير بها الطائفية والمذاهب والعنصرية، وهي الثلاثي الأدهى والأمر، يأكل بعضها بعضاً كالنار في الهشيم، وهو واقع الأمة، بسبب قصور فهم الكثير من أبناء الإسلام لدينه، وبروز محاولات هادفة تحت شعار التعايش السلمي، والتسامح الديني الخطير في أهدافه.

أهمية هذا البحث:

- ١- إن عالمنا اليوم وبالذات العالم الاسلامي، وبالأخص الأمة العربية يعيش في نكسة لا تليق بالإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه، وبالأخص أمة القرآن التي إن تمسكت به كانت خير أمة أخرجت للناس.
- ٢- إن أهمية هذا البحث المتواضع يكمن في إبراز استغلال الانقسام الاجتماعي من قبل قوى الاستكبار العالمي وعلى رأسها أمريكا بجعل إسرائيل صاحبة الدور الأساس والمحوري في تفتيت الأمة وتشثيتها تحت العناوين والمسميات الطائفية والعنصرية والقومية والطبقية، التي تنن منها الأمة لقرون عديدة، وهي امتداد للتأمر عبر تاريخ البشرية.
- ٣- إن الانتكاسة التي يعيشها عالمنا اليوم، ليس لها من سبب إلا سبب واحد، هو رفض منهج الله في إدارة الحياة، وتعدد صور تأله الانسان على أخيه الانسان من أقصاء وتهميش، وعدم مساواة، وإقلاق للسكينة العامة بطغيان الطاغوت، وهذا الرفض كلي في بعض البيئات الإنسانية، وجزئي في بيئات أخرى، إلا من عصمه الله، وقليل ما هم.

أهداف البحث:

- ١- يهدف البحث إلى المساهمة في التعريف بمخاطر عدم المساواة التي ينتج عنها عناوين عديدة ساعدت مشروع الاحتلال على التجزئة، كعناوين الطائفية والعنصرية والقومية، والوطنية، والطبقية، وهي بعض من النماذج التي مزقت الأمة تحت هذه اللافتات، إلا أنها الأبرز في وقتنا هذا، وهي الأخطر، وزاد على ذلك بله الحزبية البغيضة التي أريكت ساحات الأمة الداخلية، وفتحت جروحاً وحروباً، وأشعلت فتناً تهدد السلم الاجتماعي.
- ٢- يهدف البحث إلى إبراز الهدف الأعلى من خلق الانسان؛ لأنه الغاية المنشودة لكل ما يجري على كوكب الأرض، فالإنسان غاية النظم والتشريعات الإلهية، وهو صاحب الجهد الفذ في الحياة؛ كونه المستخلف فيها والممكن من استثمار الخيرات التي أودعها الله فيها من أجله، من خلال نظام دقيق يحكم حياة الأفراد والشعوب والأمم للتعايش السلمي العالمي لا عبد ولا معبود من دون الله، ولا ظالم ولا مظلوم، منهج يصنع من الوجود الانساني وحدة إنسانية، ويوجه البشرية كلها إلى التآلف والسعي الدؤوب لما فيه خير للجميع في هذه الدنيا.
- ٣- يهدف البحث إلى إبراز مزايا الإسلام على سائر الثقافات التي يُروج لها تحت شعارات حقوق الإنسان البراقة، وإلى نظام للحياة الكريمة الآمنة المطمئنة المستدامة للبشرية جمعاء، وهو السبيل للخلاص مما عليه المسلمون من تقهقر وفقدان العزة، ومما عليه البشرية من شقاء وتعاسة، وهي المشكلة التي يعالجها البحث.

منهج البحث:

يتمثل منهج البحث في هذه الدراسة في النقاط الآتية:

- ١- **المنهج التحليلي:** لمعرفة البواعث، والدوافع، والمحرضات لعدم المساواة، واستشفاف الغايات والأهداف التي ترمي إليه.

٢- المنهج التوثيقي: توثيق المعلومات والآراء من الكتب الفقهية وغيرها ذات الصلة بالموضوع محل الدراسة.

٣- التجرد الكامل للباحث وفقاً للمنهجية البحثية العلمية.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم المساواة في الاسلام.

المبحث الثاني: العيش المشترك.

المبحث الثالث: السلم الاجتماعي.

المبحث الرابع: النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مفهوم المساواة

تعريف المساواة: المساواة في اللغة تعنى ساواه أي مائله وعادله، بالتالي هي المماثلة والمعادلة أي المشابهة والمطابقة ويقال: ساوى الشيء بالشيء إذا عادله، ويقال: فلان وفلان سواء، وهم سواسية أي أشباه مثل يمانية (لسان العرب: ٣١٠، ٣١١).

وفي الاصطلاح: هي التماثل بين الجميع في الحقوق والواجبات دون تمييز بسبب اللون أو العرق أو الدين أو الحالة الاجتماعية، وتوافر معاملة مساوية لكل بني البشر، وإلغاء الفوارق الموجودة التي تظهر بحكم الطبيعة (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وعلان الأمم المتحدة: ص ١٣).

ويرتكز حق المساواة على حقيقة أن البشر متساوون فيما بينهم، أي: لا يوجد أناس فوق أناس، أو أناس تحت أناس.

لذا عانت البشرية كثيراً ولا تزال من سياسات التفرقة والتمييز بين الناس على أساس عرقي عنصري، أو ديني طائفي، أو اقتصادي طبقي، حيث تعتقد فئة مهيمنة بأفضليتها على الآخرين، وتستأثر عليهم بالامتيازات، وتعاملهم بعدّهم بشراً أو مواطنين من درجة أدنى، وتعد كلمة تمييز عن عملية حرمان فرد أو جماعة من التساوي في الفرص والحقوق والواجبات (نهج المساواة: مجلة الكلمة العدد ٣٦/٢٠٠٢م ص ٨. معالم الثقافة الإسلامية: ص ٨).

ومن الناحية العلمية لم يثبت صحة أي من النظريات العنصرية التي تدعى رقي بعض السلالات والأعراق البشرية، وتخلف البعض الآخر، فجوهر الإنسان واحد في كل الأعراق والسلالات، والاستعدادات والقدرات متشابهة، بيد أن للبيئة والمحيط دوراً في تنمية المواهب وإبراز القدرات، فقد تتراكم ظروف تاريخية واجتماعية مثبطة لعوامل النهوض والتقدم عند بعض الأمم والشعوب، بينما تنفدح شرارة الانطلاق عند أمم أخرى لعوامل

وأَسباب موضوعية تناقشها أبحاث فلسفة التاريخ والحضارة (نهج المساواة: مجلة الكلمة العدد ٣٦/٢٠٠٢م، ص ٨. معالم الثقافة الإسلامية: ص ٨).

- الغاية من أصل الخلقة:

فالإنسان هو الغاية المنشودة لكل ما يجري على كوكب الأرض، فهو غاية الوجود، ومحور الرسائل السماوية، وهو المقصود غاية وهدفاً، وتسخييراً لما في الكون؛ لأن الله سبحانه استخلف الإنسان وكرمه بالعقل الذي هو أسمى شيء في الإنسان المفضل على سائر المخلوقات، لأن أوجه التكريم والتفضيل كثيرة، فقد خلقه على أحسن هيئة وأكمل صورة منذ الخلقة الأولى من نفس واحدة تتساوى في المعاملة وتتفاضل بالتقوى والعمل، مما يدعو إلى الجد والنشاط، ويرفض التفرقة والعنصرية والعصبية بحكم الفطرة السليمة المجدول عليها (التكريم الإلهي للإنسان: ص ٥).

ولعل في نبوغ كفايات متميزة، وعبقريات رائدة، من مختلف الأعراق والمجتمعات، دليلاً كافياً على سقوط دعاوى النظريات العنصرية، كما أن تأريخ البشرية يشهد، بتوارث التقدم الحضاري وتعاقبه بين أمم الأرض، فليس هناك عرق أو سلالة تحتكر مسيرة الحضارة في التاريخ (نهج المساواة: مجلة الكلمة: ص ٨، ٩).

وقد تعرض العلماء لقضية العنصرية ولما سمي بالتفوق العنصري أو العرقي، وأشبعوها درساً وتحليلاً، وتبين لهم تهافت الادعاءات القائلة بوجود فروقات عرقية جوهرية بين البشر، وتوضيحاً لذلك فقد اجتمع لفيف من العلماء والمختصين في علوم الوراثة وعلم الأحياء العام (البيولوجيا) وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الأنثروبولوجيا (علم النفس). وأصدروا من مقر اليونسكو في باريس، بياناً عاماً يشرحون فيه بطلان النظريات العنصرية (موسوعة السياسة: الكيالي، ص ٢٥٠).

إن كلمة المساواة عامة وشاملة، وهي من المبادئ السامية والشعارات الجميلة التي ينادي بها العلماء والمصلحون، لأنها متوافرة في التكوين الأساسي والغرائز الفطرية، وما وجد من فوراق هي بناءً على البيئة التي يعيش فيها الفرد والجماعة، فالإنسان ابن بيئته في مناحٍ كثيرة من الأمور التي يكتسبها بجهد واجتهاده، سلباً وإيجاباً، تقدماً وحضارة، تخلفاً وجهلاً، كما أن الناس أصلهم واحد من ذكر وأنثى (حقوق الإنسان في الإسلام: الزحيلي، ص ١٥١، ١٥٢).

وهذه المساواة لم تكن مقررة في معظم الأنظمة والشرائع قديماً. بل إن منها ما لا يزال حتى الآن يمارس أنواع التفرقة في مجتمعاتها - على الرغم من التقدم العلمي وادعاء المساواة والديمقراطية (أمريكا) وهي عدوة للشعوب - امتداداً للشرائع القديمة التي شرعها الكهنوت وأخرجها في ثيابات دينية، ففي الهند سادت الديانة البرهمية، وقسمت الناس إلى أربع طبقات، ومنحت طبقة البراهمة - وهي طبقة الكهنة ورجال الدين - امتيازات وحقوقاً خاصة حتى ألحقهم بالآلهة، وقد كان السائد عند الإغريق - وهم قدماء اليونان - أنهم خلُقوا من طبيعة أسمى من سائر الشعوب، لهذا ساد عندهم النظام الطبقي، أما الرومان فقد عدّوا أنفسهم أوصياء على البشرية

كلها، وكذلك العرب في الجاهلية، فقد كان العربي يتعالى على غيره، حتى يأنف أن يصاهره، وهي حالة مرضية حتى يومنا هذا (حقوق الإنسان في الإسلام: الزحيلي، ص ١٥١، ١٥٢. وانظر في هذا كتب الفقه إجمالاً فيما يتعلق بالكفاءة بالنسب ابتداءً بمسند الإمام زيد: الكفاءة في النكاح).

- هدف الرسالات السماوية:

جاء الإسلام وعدّ المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات من المبادئ الجوهرية الأساسية، وقرر ذلك في نصوصه قبل أربعة عشر قرناً ومن قبله الرسالات السماوية بوصفها رسالة واحدة، قال تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»، [سورة آل عمران: رقم ١٩] وأنه لا تفاضل ولا تمايز بين الناس، ولا عصبية بين القبائل، والأقوام، والأجناس، مُسْقِطاً كل أنواع التفرقة؛ لكي تغسل الأنفس من تلك الأرجاس وتطهرها (الخصائص العامة للإسلام: القرضاوي، ص ٩٣، ٩٤).

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [سورة الحجرات: ١٣] إنه نداء موجه إلى الناس كافة، وكلمة "الناس" مصطلح يعبر به عن اسم الجنس الإنساني، وهو مصطلح لا يقبل التجزئة والثنائية، فهو مصطلح يعني أنه الذي يعني جماعة من الناس، وجمعه أمم، وكذلك شعب وجمعه شعوب، وكذلك مجتمع وجمعه مجتمعات (نهج المساواة: ص ١٢). أما الناس فهو يشمل جميع البشر، فلا مجال لتجزئته إلا على سبيل الإضافة، ولا صيغة للجمع فيه.

وقد أكد الرسول -صلى الله عليه وعلى آله -مبدأ المساواة في أكثر من حديث، منها قوله صلى الله عليه وعلى آله: «الناس سواسية كأسنان المشط» (سبق تخريجه)، وقال صلى الله عليه وعلى آله في خطبة حجة الوداع: «أما بعد أيها الناس ألا إن ريكم واحد، ألا وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلغت» (مسند الإمام أحمد: رقم ٢٣٥٤٨).

فالإنسان إنسان من أي وطن كان، وأي بلد كان، بلا فرق بين وطن ووطن وبين إقليم وإقليم، فالبلاد كلها أرض الله، والناس كلهم عباد الله، وبهذا تسقط كل ألوان العصبية الإقليمية والوطنية التي تعلي أهل بلد على غيره (الخصائص العامة للإسلام: ص ٩٤، ٩٥).

وحسب هذا المفهوم يكون الوطن داراً تحكمها عقيدة ومنهاج وشرعية من الله وتكون الجنسية عقيدة ومنهاج حياة؛ لأن عصبية العشيرة والقوم والجنس واللون والأرض عصبية صغيرة متخلفة عصبية جاهلية عرفها البشرية في فترات الانحطاط الروحي، حاصرها الإسلام وسماها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «منتنة» بهذا الوصف الذي يفوح منه التقزز والاشمئزاز (معالم في الطريق: ص ١٢٧).

ذلك أن المشروع الإلهي إنساني النزعة والهدف، عالمي الأفق والرسالة ينظر إليه الناس بمقياس واحد، لا تفسده القومية العنصرية أو الجنس، أو اللون، وواضح أن هذه النزعة من أثر القرآن الكريم، الذي يعلن أن الناس

خلقوا من ذكر وأنتى (معالم في الطريق: ص١٢٧. وانظر: حقوق الانسان في الإسلام: الزحيلي، ص ١٥٧ وما بعدها).

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر على قلوب كل من ينتسب إلى الإسلام، وهو الذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به شوائب التصورات الجاهلية الدخيلة، والشرك بالقوم، والشرك بالنسب، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة تلك التي يجمعها الله سبحانه في آية واحدة فيضعها في كف، ويضع الإيمان ومقتضياته في كف أخرى، ويدع للناس الخيار (معالم في الطريق: ص١٢٧) ، قال تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» [سورة التوبة: ٢٤] إن قيمة النفس والأهل والقوم والعشيرة والبلد والوطن والأمة والإنسانية والأبطال القوميين والإنسانيين، لا تصلح أن تكون القيمة العليا والغاية القصوى التي يجتمع عليها الناس على مر العصور ومر الأجيال، ويلتقي البشر حولها أبد الدهر، ولا الهدف الأسمى الذي تسير نحوه الإنسانية باستمرار.

إن الله وحده في رأي الثقافة الإسلامية هو الغاية المثلى والقيمة الخالدة والهدف الأسمى الذي يمكن أن تلتقي في رحابه الإنسانية أفراداً وجماعات تستقي منه الخير والحق والعدل والقوة (معالم الثقافة الإسلامية: ص٨٩).

فالإسلام كان أول أسفين دُق في نظام الطبقات والفوارق بين الناس؛ فقد نشر عقيدة التوحيد، التي ترجع بالخلق إلى خالقهم، وتكشف لهم عن ضلال الشرك والخضوع لدين الله وتدعوهم إلى أن يحرروا أنفسهم من رق الوثنية، وأن يخلصوا العبادة لله وحده، وهذه العقيدة هي الأساس الإسلامي الأكبر لحريات الإنسان وحقوقه، وهي حجر الزاوية في إقامة ركن المساواة الذي بنى عليه الإسلام نظام مجتمعه، وقد وضع الإسلام هذا المبدأ موضع التنفيذ والعمل، فوجه دعوته في الوسط المكي إلى الرجال والنساء - وكانت أول شهيدة في الإسلام اليمينية سمية بنت خياط (أم عمار بن ياسر) - والشيوخ والشباب والأغنياء والفقراء، والأحرار والعبيد، واستجاب له من كل صنف من هؤلاء جماعة تألفت منهم النواة الأولى للدعوة الجديدة، وتأصلت في نفوسهم منذ البداية فكرة المساواة الإنسانية أمام الله (المواطنة في الإسلام: ص١٢٤، ١٢٥. الرحيق المختوم: ص١٢٨).

-وحدة الجنس البشري:

فالبشر المنتشرون في القارات الخمس أسرة واحدة انبثقت من أصل واحد ينميهم أب واحد وأم واحدة، ولا مكان بينهم للتفاضل في أساس الخلقة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلكم لآم وآدم من تراب» (مسند الإمام أحمد: رقم ٢٢٩٧٨) ومن هنا يجيء قول الإمام علي: «أيها الناس إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وأن الناس كلهم أحرار» (المواطنة في الإسلام: ص١٢٥).

وقال أمير المؤمنين عمر في قصة ابن عمرو بن العاص مع ابن القبطي: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" (حقوق الإنسان: الغزالي: ص١٩. إسلام بلا مذاهب: ص٥٩).

وتأسيساً على عقيدة التوحيد في الإسلام وهي جوهر الدين وجب أن تكون هناك وحدة في الإنسانية، وهو التكليف الإلهي الذي يتوجه له جميع الناس على السواء، على أساس أن الصفة الإنسانية صفة يتوارثونها نفسياً وعقلياً، وهي الشائعة في جنسهم كله، وأنهم أهل لكل ما كفل الله للإنسانية من كرامة، وأناط بها عن واجب (المواطنة في الإسلام: ص ١٢٥، ١٢٦)، قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» [سورة النساء: ١] وقال تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتَيْكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [سورة الأعراف: ٣٥].

إن هذين النداعين نماذج لضروب النداء التي وردت في القرآن الكريم اتسمت بأنها تحيل إلى أن الإنسانية معنى مشترك يتساوى سكان الأرض في حقيقته ونتيجته، لا فرق بين أهل المناطق الحارة والمناطق الباردة، ولا فرق بينهم جميعاً الآن وبين آبائهم من قرون مضت أو ذريتهم بعد قرون مقبلة (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة: ص ١٣).

ولا نكران لمبدأ أن البشر يختلفون في لغاتهم وألوانهم من الناحية العامة، لكن هذا الاختلاف لا يؤبه له، ولا يخذش ما تقرر من تساويهم في الحقيقة الإنسانية الأصلية، إنه كاختلاف ألوان الورود في البستان، وقد رفض الإسلام رفضاً حاسماً أن يكون ذلك مثار تفرقة، أو سبب انقسام بل جعله بالنسبة إلى الخالق الكبير آية إبداعه (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة: ص ١٣. معالم في الطريق: ص ٤١ وما بعدها) قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ» [سورة الروم: ٢٢].

وبهذا تسقط الاعتبارات الطبقيّة التي قامت عليها كثير من المجتمعات قديماً وحديثاً، وأقام عليها بعض الناس فلسفتهم الحاكمة السوداء التي تبني طبقة واحدة بهدم كل الطبقات (الخصائص العامة للإسلام، ص ٩٥).

فالإنسان هو الإنسان من أي دين كان؛ ذلك أن اختلاف الأديان لا يسقط عن المخالفين إنسانيتهم ولا يخلصهم منها، حتى أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قام لجنّازة، فقيل له: "إنها جنّازة يهودي" فقال: «أليست نفساً» (البخاري رقم ١٣١٣. مسلم رقم ٩٦١. مسند أحمد رقم ٢٣٣٣٠).

إذاً لا مكان في دين الله القويم لجنس متفوق ولا لشعب مختار، ولا لطبقة متسلطة، ولا لأسرة لها حق السيادة على غيرها (الخصائص العامة للإسلام: ص ٩٥. معالم في الطريق: ص ١٢٧).

- نماذج تطبيقية في صرح الإسلام القويم:

ولقد برئ الإسلام من العصبية القبلية والعنصرية، إلى جانب براءته من عصبية النسب والأسرة، فبلغ بذلك مستوى لم تصل إليه (الحضارة) الغربية المعاصرة التي تبيح للضمير الأمريكي إفناء عنصر الهنود الحمر إفناءً منظماً تحت سمع الدول وبصرها، كما تبيح لحكومات جنوب أفريقيا أن تجهر بالقوانين العنصرية ضد الملونين، وتبيح لحكومات روسيا والصين والهند والحبشة ويوغسلافيا وغيرها إفناء المسلمين بالجملة (العدالة الاجتماعية: ص ٥٤. إسلام بلا مذاهب: ص ٦٠، ٦١).

ولذا واجه الإسلام عند ظهوره بيئة محلية تضطرب فيها موازين المساواة، ويجار على الحقوق العامة لغير سبب مشروع، إلا أن رسول الرحمة -صلوات الله عليه وآله- وسلم استطاع أن يخرج الناس من بيئتهم الجاهلية إلى صراط الله المستقيم ولم تأخذه هوادة في محق مآثر الجاهلية، ورد الاعتبار المفقود إلى جماهير الخلق على اختلاف الألوان والأوضاع (حقوق الإنسان: الغزالي، ص ١٤٤).

فقد سمع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من أحد أصحابه يقول لأحد الزوجين: «يا ابن السوداء» فأنكرها أشد الإنكار وقال لأبي ذر: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»، ومما قاله: «طف الصاع، طف الصاع (أي جاوز الأمر حده)، وليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح» (البخاري: رقم ٣٠ وطره رقم ٢٥٤٥، ٦٠٥٠، مشكل الآثار للطحاوي ٩٤٤).

وقد ندم أبو ذر على فعلته، وأثرت كلمات الرسول صلوات الله عليه وعلى آله في نفسه فألصق خده بالأرض، وقال للأسود: «قم فطأ على خدي» (تخریج كتاب إحياء علوم الدين للغزالي رقم ٣٤٨٥).

وبهذا التعليم المبين الحاسم محا الإسلام من المجتمع كل نزعة إلى التفرقة العنصرية، والحق أن لون الجلد الإنساني لا يسوغ أن يكون مثار تقديم أو تأخير، فالمدار على الخلق والسلوك في تحديد القيم، حيث المساواة هي أول ثمار الإيمان، وهي أساس حقوق الإنسان جميعاً، وفي قصة الملك الغساني جبلة بن الأيهم مع الأعراب من الدلالات ما يكفي لبيان دور عقيدة التوحيد في تأسيس حقوق الإنسان وحمايتها، فبينما جبلة بن الأيهم -أحد ملوك الغساسنة- يطوف بالكعبة بعد أن أسلم، إذا أحد الطائفتين يدوس على إزاره، فالتفت إليه مغضباً، ثم لطمه على خده، فقال الطائف: «لأشكوك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» وبين يدي عمر بث الرجل شكواه، فاستدعى عمر جبلة وسأله: «أحقاً يقول الرجل أنك لطمته على خده؟» فقال جبلة: «نعم، ولولا أننا أمام بيت الله لقطعتم أنفه بسيفي هذا» فقال له عمر: «اختر لنفسك واحداً من أمرين إما أن تعتذر له وتترضاه، وإما أمرته أن يلطمك» فدهش الغساني من حكم عمر وقال: «كيف تسوي بيني وبينه إنما أنا ملك وهو سوقة» فقال له عمر: «إن الإسلام قد سوى بينكم فلا فرق بين الملك والسوقة» فقال له جبلة: «أجلني حتى أختار» فأجله عمر ثلاثة أيام، فلما كان الليل هرب مع حاشيته إلى بلاد الروم (كتاب الأمة: العدد ١١٤/١١٤٢٧ هـ المقدمة: ص ٢٤، ٢٣).

وكذلك أمير المؤمنين الإمام علي في مدة حكمه القصيرة المليئة بالجوانب التي ترعى كرامة الإنسان وحمايته، فقد نبه عماله على رعاية هذه المسألة، ففي عهده الذي أرسله إلى مالك الأشتر يقول: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق، ينوط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤثر على أيدهم العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك...» (نهج البلاغة: خطبة رقم ٢٩١، ص ٥٧٢).

هذا الكلام وإن كان في ظاهره دستوراً أخلاقياً، لكنه يمكن أن يؤسس للمباني الحقوقية في التعامل بين الحكومة والشعب، وأن تكون ثقافة الناس قائمة على هذا الأساس، فعندما كان في طريق العودة من حرب صفين إلى الكوفة، ومرّ بالشاميين -وهم شعبة من قبيلة همدان- خرج إليه حرب بن شريحيل الشامي وكان من وجوه

قومه، وأقبل يمشي معه وهو راكب -أي الإمام علي- فقال له: «إرجع؛ فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمنين» (نهج البلاغة: خطبة رقم ٢٩١، ص ٥٧٢). معتبراً هذه الوضعية تخدش كرامة الإنسان وتكبر الحاكمين، وهي من الأسباب التي تؤدي إلى ذلك (المنهاج: العدد ٣١/٢٠٠٣ م. حقوق الإنسان في الإسلام: لمجموعة من الدكاترة ص ١٩٨).

وجاءته امرأتان فأعطاهما على حد سواء، فلما ولّتا، أسفرت إحداهما وقالت: "يا أمير المؤمنين فضلني الله بما فضلك الله به وشرفك" فقال: «وبما فضلني الله وشرفني؟» فقالت: "برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم" فقال: «صدقت، وما أنت؟» قالت: "أنا امرأة من العرب وهذه من الموالي فتناول شيئاً من الأرض، ثم قال: «قد قرأت ما بين اللوحين فما رأيت لولد اسماعيل على ولد اسحاق فضلاً ولا جناح بعوضة»^(١).

وقد روى الشعبي أن علياً وجد درعاً له عند نصراني، فأقبل به إلى شريح القاضي قائلاً: «هذه درعي» فقال النصراني: "ما هي إلا درعي" ولم يكذب الإمام علي، فقال شريح لعلي: "ألك بينة؟" فقال: «لا» وهو يضحك، فأخذ النصراني الدرع ومشى به يسيراً، ثم عاد وقال: "أشهد أن هذه أحكام الأنبياء أمير المؤمنين قدمني على قاضيه، وقاضيه يقضي عليه"، ثم أسلم، واعترف أن الدرع سقطت من علي عند مسيره إلى صفين، وفرح الإمام علي بإسلامه ووهب له الدرع وفرساً (الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ص ٤٤٣. انظر الخصائص العامة للإسلام: القرضاوي، ص ٩٩).

وحاول بعض من الصحابة أن يشفعوا أسامة بن زيد - حب رسول الله وابن حبه- في امرأة من قريش، ومن بني مخزوم، سرقت فاستحقت أن يقام عليها حد السرقة (قطع اليد) فكلمه فيها أسامه، فغضب صلى الله عليه وآله وسلم، غضبته التاريخية المعروفة وقال كلمته التي خلدها التاريخ: «إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها» (مسلم رقم ٣٢٩٨) وليس من شك في أن المساواة أساس العدالة في المجتمع، فالحلال حلال للجميع، والحرام حرام على الجميع، والفرائض ملزمة للجميع والعقوبات مفروضة على الجميع (الخصائص العامة للإسلام: القرضاوي، ص ٩٧).

إن مسألة المساواة لا يتسع لها البحث محل الدراسة، الذي هو مساهمة متواضعة في هذا الموضوع الذي يمثل روح الإسلام والفضيلة النادرة، بوصف المساواة تشكل الأرضية الصالحة للعيش المشترك، الذي صار محل شجون بسبب ما آلت إليه حالة أمة القرآن، فمسألة حقوق الإنسان وكيفية العودة بالإنسان إلى الوحدانية أو مفهوم التوحيد والمساواة، ونبذ الوصايات البشرية وإيقاف تسلط الإنسان على أخيه الإنسان في الحياة تمثل الأزمة الكبرى في مسيرة الحضارة، ومحور الصراع التاريخي (خلاصة كتاب الأمة: العدد ١١٤/١٤٢٧ هـ بتصرف. وانظر حقوق الإنسان من الإسلام: الزحيلي، ص ١٥٤ وما بعدها).

(١) وانظر في هذا قصة عبادة بن الصامت عندما أرسله وهو مصر إلى المقوقس للتفاوض معه وكان عبادة شديد السواد فرفض المقوقس التفاهم والحوار معه لشدة سواده، فرد الوفد المرافق لعبادة إنه أميرنا وأفضلنا. معالم الثقافة الإسلامية: عبدالكريم عثمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، ١٩٨٤ م، ص (١٢٥). وانظر: من روائع حضارتنا: مصطفى السباعي، ص (١٤).

فأزمة الحضارة اليوم تتمثل في عدم إعادة الاعتبار للقيم الدينية، وإدراك دورها في معالجة الخلل، وتحريير الإنسان واسترداد كرامته بعيداً عن الاستبداد السياسي، وكهانات التدين المغشوش الذي يبرر للطواغيت ليفعل بالأمة ومقدراتها ما يحلو له ومنها تبرير التطبيع مع العدو الغاصب عدو البشرية.

ولهذا تشتد الحاجة في هذه الأيام أكثر فأكثر لإثارة موضوع المساواة، حيث الانتهاكات الفاضحة لحقوق الإنسان والفلسفات المنحازة لصالح الهيمنة والتسلط للصهيونية الأمريكية الإسرائيلية ومناقفي العرب والمسلمين، وذلك ببيان دور النبوة في التحرير والتقيد ودور الإيمان بالله الواحد في تحقيق المساواة أساس حقوق الإنسان، واستشعار المسؤولية تجاه كرامة الإنسان حيثما كان، وبناء إنسان الفكرة المنتج ليكون البديل عن إنسان الغريزة المستهلك بغض النظر عن لونه وأصله ونسبه (خلاصة كتاب الأمة: العدد ١١٤/١٤٢٧ هـ بتصرف).

ولهذا اتجهت قيادة الثورة من اليمن بعد ثورة ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م نحو تجاوز هذه المسميات وأن الناس جميعاً لآدم وآدم من تراب؛ لأن الخطاب الجهادي للثورة المباركة في تحملها المسؤولية قائم على أساس المساواة، ويولي أهمية كبيرة لأدوار المستضعفين في عملية التغيير الثوري ومن ذلك دمج أحفاد بلال (المهمشين) في جميع مناحي الحياة بدون استثناء، وقد أثبت هؤلاء جدارتهم بتحمل المسؤولية عندما دمجوا مع سائر المقاتلين من الجيش اليمني واللجان الشعبية للدفاع عن اليمن من العدوان العالمي على بلد الإيمان والحكمة بقيادة أمريكا وإسرائيل وأحذيتها في المنطقة على رأسهم السعودية جارة السوء ومهندسة التطبيع مع إسرائيل، ودويلة الإمارات، (أكتب هذه الأسطر واليهود مع إماراتيين يؤدون شعائر اليهود في المعبد الذي تأسس بالإمارات بعد التطبيع، تحقيق قناة المسيرة لأنس القاضي: ص٦) (١).

وقد أبدى الأبطال من أحفاد بلال مهارة قتالية واندماجاً مع المجاهدين بصورة زال معها الإشكال الظاهر من سلالات وأعراق وألوان بين المجاهدين وترسخت معها أيضاً القيم والأخلاق والفداء في ظل الإخوة الجهادية، وفي كثير من الجبهات وصل المهمشون إلى مراتب قيادية (تحقيق قناة المسيرة لأنس القاضي: ص٦)، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [سورة الحجرات: ١٣].

فما أحوج الأمة الإسلامية، وهي تعيش فقدان المساواة، وفتن الخلافات المذهبية والطائفية والحزبية، أن تراجع نفسها مع كتاب ربها وسنة نبيها الصحيحة لتعرف سمو تعاليم الإسلام، وبراعته مما يمارس باسمه من ظلم وجور، وإبراز هذا المنهج إعلامياً وثقافياً وتوعوياً عبر علماء رساليين ربانيين يدركون المشروع الإلهي والاستخلاف الحقيقي للإنسان على المستوى العالمي، في مواجهة حملات التشويه التي تستهدف الإسلام والمسلمين، مما يخطط لها اللوبي الصهيوني واليمين المسيحي المتطرف لتتمكن إسرائيل من مواصلة احتلالها للأرض العربية، وتحقق أطماعها التوسيعية، وهذا لا يتأتى إلا بإعادة صياغة علاقة الأمة بعضها ببعض، وتجاوز المفاهيم التي علقت في أذهان الناس وصارت علاقة جامدة اجترارية للماضي وسكونية غير متفاعلة ولا

(١) وقد عمل الحزب الاشتراكي اليمني قبل الوحدة المباركة على دمج هذه الفئة، وكذلك جامعة تعز وجامعة صنعاء، وتم تأسيس مدينتي في تعز وصنعاء، ولكن دون جدوى.

ابتكارية، لذا لا بد من المنهج القويم لبناء حضارة مستدامة متفاعلة مبتكرة يوماً بعد يوم (مجلة الكلمة: العدد ٣٢/٢٠٠٢ م ١٧ بتصرف)، قال تعالى: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [سورة لقمان: ٢٧].

يقول عمر عبيد حسنة في تقديمه -وما أروع ما يقدمه في كل عدد- في هذا الموضوع: "إن الأمة المسلمة هي أمة الفكرة أو أمة العقيدة؛ ذلك أن كل من يؤمن بهذه العقيدة منسلك في الأمة الوسط الشهيدة مهما كان جنسه أو لونه أو قومه أو جغرافيته بعيداً عن الانغلاق والتعصب والتميز مؤهلة بهذا الاعتبار ويمضي قائلاً: "وحسبنا أن نقول بأن المساواة والعدالة وحرية الاختيار وعدم الاكراه هي القيم التي تحمي انسانية الانسان وكرامته وهي قيم مؤهلة للحكم والشهادة والقيادة للناس" (كتاب الأمة: العدد ٨١/٤٢٢ هـ).

المبحث الثاني: العيش المشترك

مفهوم التعايش: التعايش في اللغة مشتق من العيش، والعيش الحياة (القاموس المحيط: ج ٢، ص ٤٠٩).

يقول صاحب معجم اللغة العربية المعاصرة: "تعایش بتعایش، تعایشاً، فهو يتعایش، تعایش الجيران: عاشوا على المودة والعطاء وحسن الجوار، تعایش الرفيقان في غربتهما على الألفة.

وتعایش الدولتان تعایشاً سليماً: التعايش السلمي بين الدول، والاتفاق بينهما على عدم الاعتداء (معجم اللغة العربية المعاصرة: ج ٢، ص ١٥٨٣).

والتعايش في الاصطلاح: يقصد به العيش المتبادل مع الآخرين القائم على المسالمة والمهادنة (حياة محمد: ص ٢٣٦).

وقد شاع هذا المصطلح تحت مسمى (العيش السلمي) خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وله محاذيره التي يراد منها تسخير الأمم تحت هذا المسمى بعد أن ذاقت أوروبا وولايات الحروب، ذلك أنه شعار براق مجبول عليه الإنسان فطرياً وهو من أهم ما جاءت به رسالات الله لأهل الأرض عبر رسله سلام الله عليهم - لاسيما رسالة الإسلام التي هي خاتمة الرسالات التي اختير لها أفضل رسول من بين الرسل، لأنها رسالة عقلية بحتة (كتابه الأمة العدد ١٢١/١٤٢٨ هـ ص ٨. العدالة الاجتماعية في الإسلام: ص ٢١)، فنبوة الأنبياء جميعاً تمثل رصيذاً فكرياً وتاريخياً وحضارياً لخاتم أنبيائه، بوصفه الوريث للنبوات السابقة وتجربتها، وهي الخلاصة للرحلة الإنسانية على وجه المعمورة وهذا اختيار من الذي يملك كل شيء، إذ حباه الله من المهارة والقدرة والحكمة ما يجعل الإنسان يقف دهشاً ثم يطأطئ الرأس إجلالاً وإكباراً لهذا النبي الكريم الذي اضطلع بالمشروع الإلهي لإلحاق الرحمة بالعالمين (المصادر السابقة. وأنظر: معالم الثقافة: ص ٥١)، لأن صفات الكمال التي توزعت على الأنبياء جميعاً التقت أطرافها في شخص الرسول الأعظم وهذا هو المنهج الرباني في اصطفاء الأنبياء والمرسلين واختيارهم من خيرة الخلق، ثم إعدادهم إعداداً إلهياً، وتربيتهم تربية ربانية، ثم الوحي إليهم، والتكليف بالدعوة والتبليغ وفقاً لمراد الله الذي يستهدف الإنسان لبنائه البناء الشامل؛ كونه المستخلف لبناء الأرض وتعميرها والتعمير بخيراتها، ذلك أن الإنسان محور الرسالات السماوية (حقوق الإنسان في الإسلام: الزحيلي، ص ٥٨، ٥٩. معالم

الثقافة الإسلامية: صد ١٥٠. معالم في الطريق: صد ٤١)، لما أودعه الله فيه من مزايا وصفات، ولما أعده من جليل الغايات.

- رحمة الله في رسالة الرسل:

والنبوة هبة الله لا تتال بالكسب، لكن رحمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها والقادر على حملها، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ومحمد - صلوات الله عليه وآله - أعدّ لأن يحمل الرسالة للعالم أجمع، أحمره وأسوده، أنسه وجنه، وأعدّ لأن يحمل رسالة أكمل دين، ولأن يختم به الأنبياء والرسل، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء وتتكرر النجوم، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات (حياة محمد المقدمة: صد ١٠١).

إن الحديث عن بداية الدعوة التي أمر الله بها خاتم أنبيائه ورسله لا يتسع لها المقام -إلتزاماً بالمنهجية العلمية للبحث العلمي؛ كون المبحث محل الدراسة متعلق بالعيش المشترك- ولكن سأشير إشارة عابرة لسبب الهجرة من مكة المكرمة إلى يثرب (المدينة المنورة) فالرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد إعلانه أنه رسول من الله بالمشروع الألهي الأخير لأهل الأرض من بطن مكة بوصفه رحمة من الله لعباده على وجه المعمورة يستوعبها الزمان والمكان وتتوارثها الأجيال إلى أن تنتهي قصة الحياة والأحياء (فقه السيرة: صد ١٠٤، ١٠٥) وقفت قريش أمام هذا المشروع بكل كبرياتها وعتوها وعنادها، على الرغم من أنه يحمل لها المجد والعز والذكر الحسن قال تعالى: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [سورة الأنبياء آية (١٠)] وقال عز من قائل: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ» [سورة الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى «وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ» [سورة المؤمنون: ٧١] صدق الله العظيم.

وقد حزن الرسول - صلوات الله عليه وعلى آله - على أهل مكة فقد أعرضوا عن دعوته إلا القليل منهم عن الدخول في هذا الدين القويم، وظل يدعوهم ثلاث عشرة سنة يحاول معهم بكل الوسائل رغم سوء تعاملهم معه، لكن الله هياً لرسوله أرضاً ورجالاً تشرفوا بهذا الشرف العظيم ونالوا به المكانة الرفيعة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا بِكَافِرِينَ» [سورة الأنعام: ٨٩] وقال تعالى: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [سورة الممتحنة: ٦] والموضوع لا يحتمله المقام (المصدر السابق. وانظر فقه السيرة النبوية: صد ١٥٤).

بعد أن استقر الرسول - صلوات الله عليه وآله - في المدينة رأى من اللازم تنظيم الوضع الاجتماعي لأهلها، ذلك لأن تحقيق أهدافه على المدى البعيد يتطلب استقرار الأوضاع فيها، ولا بد من الإشارة إلى أن التركيبة السكانية فيها كانت غير متكافئة ولا متجانسة، فقد كان يقطن هذه المدينة يومها جماعات تنتمي كل جماعة منها إلى إحدى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج (دروس من سيرة الرسول الأكرم صلوات الله وعلى آله: صد ٩٥، ٩٦. فقه السيرة: البوطي، صد ٦١٩).

وكان يعيش في داخل المدينة وحولها أقوام من اليهود ومن مشركي العرب، وفي الوضع الجديد أضيف إليهم أيضاً المهاجرون القادمون من مكة، وكان هذا الوضع يستدعي اجراءات مهمة تكفل الوئام والتقبل للوضعية الجديدة (المصدر السابق، وانظر: فقه السيرة النبوية: البوطي، صد١٤٧، ١٤٨، ١٤٩).

وفي ضوء هذا الواقع ابتكر الرسول - صلوات الله عليه وآله- فكرة وعملاً انفرد به من بين جميع الأنبياء، بأن عقد وأعظم وثيقة سياسية لم يسبقه إليها نبي، ولم تتجاوزها في روحها ودلالاتها أية وثيقة تاريخية معروفة حتى اليوم، وجعلها الأساس المنفق عليه في ما بين المسلمين بوصفهم أمة من دون الناس، رغم اختلاف قبائلهم وانتماؤاتهم، وما بين جيرانهم من اليهود والوثنيين من سكان المدينة وما جاورها (كتاب الأمة: العدد ١١٠/١٤٢٦هـ. وثيقة المدينة المضمون والدلالة: صد٥٤). وقد أحدثت هذه الوثيقة تغييراً جذرياً في المجتمع المتناحر لأكثر من مئة وعشرين عاماً وعلى وجه الخصوص ما كان بين الأوس والخزرج من صراع أسهمت فيه دسائس اليهود كعادتهم، كما نقلت هذه الوثيقة المتساكنين بيثرب من نظام الأسرة والقبيلة والعشيرة والطائفة إلى نظام الأمة، و عملت على تدعيم روح الإخاء الانساني بين سكان المدينة، ونزع أسباب الفرقة والتناحر التي كانت سائدة قبل الهجرة المباركة، وبذلك حققت هذه الوثيقة مبدأ التعايش والتسامح السلمي والتعاون بين الجميع، وقضت على العصبية القبلية والنزعة الطائفية والثارات الجاهلية (الرحيق المختوم: صد٢٤٤ وما بعدها. المصدر السابق صد٧١).

وهكذا كان أمام رسول الله - صلوات الله عليه وآله - مهمة عاجلة تمثلت في أنه هياً للتأليف بين القطاعات الاجتماعية وتأمين عيشها معاً دون مشاكل، كيف لا وهو رسول من بيده الملكوت، فكان - صلوات الله عليه وعلى آله - إنساناً تجتمع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات، وصورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها البشر، فأدرك أنه أمام تاريخ مليء بمشهد الحروب والنزاعات والصدمات المفتوحة على كل الاحتمالات بما فيها احتمالات النفس البشرية المحملة بالسوء، وفي المدينة المنورة من تلك النفسيات الكثير وأولها نفسيات اليهود، ومن في قلبه مرض، إذ لا يخلو مجتمع من أصحاب مصالح الذات والأنا، فجاء النبي وذوب عصبية الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، وأسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه، فصار الأنصار والمهاجرون كالجسد الواحد بوصف الله القائل: «وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا لِنَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [سورة الحشر آية (٩)] إلا ما كان من رأس النفاق في غزوة بني المصطلق عبدالله بن أبي ومن معه من إثارة الحس القبلي بين المهاجرين والأنصار، وكادت أن تقع فتنة بين الطرفين لا يعلم إلا الله مداها لولا حكمة النبي - صلوات الله عليه وآله - وهذا ما كان يخشاه الرسول الأكرم لاسيما من المنافقين الذين يمتلكون القدرة على الاندساس في صفوف المسلمين والاستخفاء بينهم، مما كان يمكنهم من القدرة على إنكار جرائمهم ومكائدهم والتفقت مما يدينهم، وبالتالي لم يكن للنبي - صلوات الله عليه وآله- أن يعاقبهم أو حتى يعزلهم؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام ويخفون الكفر، فقد كان يحاسب الناس بحسب أعمالهم الظاهرة (أنظر في هذا: سيرة ابن هشام ٢/٢٨٩ وما بعدها. الرحيق المختوم: صد٤٢٨، ٤٢٩. فقه السيرة: الغزالي صد٣٠٩. حياة محمد: هيكل صد٣٦٢، ٣٦٣. دروس من سيرة

الرسول الأكرم: (ص ٢٠٥، ٢٠٦)، قال تعالى: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ» [سورة التوبة: ١٠١].

وكان - صلوات الله عليه وآله- يدرك أن المواجهة مع المنافقين بالعنف والقتل والصراع المسلح لن تكون في مصلحة الإسلام والمسلمين، وكان القرآن الكريم ينزل من الله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ليفضح خططهم ومكائدهم الخبيثة قبل أن تقع، وكل ذلك لم ينل من قوة الإسلام ومنعته وانتشاره وانهيال القبائل العربية على المدينة معلنين إسلامهم أمام رسول الله - صلوات الله عليه وآله- وقد استمرت المحبة والألفة بين المسلمين إلى حين انتقال الرسول -صلوات الله عليه وآله- إلى الرفيق الأعلى(المصدران السابقان) بعد إنشاء نظام جديد في الجزيرة لم تعهده من قبل، ليترك النبي بذلك رحمة تحملها الأجيال المتعاقبة نوراً مبيناً يتمثل في المنهج القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلا أن تنتهي الحياة والأحياء(فقه السيرة: البوطي، ص ١٥٤).

وكان - صلوات الله عليه وآله- وهو في شدة المرض حريصاً على أمته لكي تكون خير أمة أخرجت للناس، بأن يكتب لها كتاباً يكون صمام أمان يحميها من الاختلاف حيث قال: «هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» وفي البيت رجال منهم عمر، فقال عمر: "إن رسول الله - صلوات الله عليه وآله- قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله"، واختلف الحضور، منهم من يقول: "قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يأبى ذلك مكتفياً بكتاب الله، فلما رأى رسول الله خصومتهم وإكثارهم اللغط والاختلاف قال صلى الله عليه وآله: «قوموا عني»(صحيح البخاري: رقم الحديث ٢٣٠٩، ورقم ٤٤٣١. مسلم رقم: ١٦٣٧. ابن حبان: رقم ٦٥٩٧) وما فتى ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابة ما أراد النبي إملأه، وكان يبكي ويقول الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتاب رسول الله (الطبقات الكبيرة: ص ٢٤٤. كنز العمال: ص ١٣٨). ذلك كان أول تنازع في الإسلام، ثم تلاه التنازع في سقيفة بني ساعده، على من يخلف الرسول - صلوات الله عليه وآله- بين المهاجرين والأنصار حتى كادت الفتنة أن تخرج عن السيطرة لولا أن الموقف حسم بمبايعة أبي بكر بحكم أن قريشاً عصابة الرسول وهم أحق بالأمر، وفي هذا رد عليهم الإمام علي: «احتجوا بالشجرة وتركوا الثمرة»(نهج البلاغة: خطبة رقم ٦٧).

بعد ذلك تتالت الأحداث وبدأ الصرح الإسلامي الذي بناه وشيده رسول الرحمة صلوات الله عليه يتصدع، وعلى وجه الخصوص من أيام الخليفة عثمان بن عفان (العدالة الاجتماعية في الاسلام: ص ٢١٠. تاريخ المذاهب الاسلامية: ص ٢٦، ٢٧)، مما هيا الوضع لبني أمية لتتحول الخلافة ملكاً عضواً شجع على بروز الفرق أولاً، ثم المذاهب ثانياً، ثم الطامة الكبرى الأحزاب التي تشكلت واحدة بعد الأخرى، وأخذ الجسم الإنساني الواحد يتصدع ويتمزق يوماً بعد يوم بفعل السلطات المتعاقبة - حتى يومنا هذا- التي كانت تشكل عاملاً كبيراً في إيجاد الفرقة بين المسلمين، وكانت أيضاً المشجعة عليها والداعمة لها حتى صارت الفرق المختلفة بالعشرات

إن لم تكن بالمئات، وقد أجمل تلك الوضعية سيد قطب في كتابه (العدالة الاجتماعية)^(٣)، وقد أشيعت أحاديث الفرقة والاختلاف، من ذلك حديث الافتراق المنسوب إلى الرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم^(٤)، وما روي من أحاديث تحكم بهلاك هذا ونجاة ذلك، لاسيما أن كثيراً من المتربصين بهذا الدين القيم قد جعل من تلك الروايات سلماً إلى التضليل، وفي ذلك ما فيه من التمزق لشملة الأمة وتهيئة أجواء العداوة والتباغض، والتعصب المذموم، حتى صار المسلم يخشى على نفسه من أخيه المسلم (حديث افتراق الأمة تحت المجهر، للأستاذ/ محمد يحيى سالم عزان، ص ٣٠)، ويبحث عن العيش المشترك، الذي رسمه رسول الله - صلوات الله عليه وآله وسلم - بين المسلمين وغير المسلمين، فتحول إلى أوساط المسلمين وهو شيء معيب في حق الأمة وقد تركها رسولها ونبيها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك (المصدر السابق)، وعندها كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وآله، وقد ذكرت ذلك كتب كثيرة تحكي حال الأمة سائير إلى اليسير منها، لأن المبحث محل الدراسة لا يستوعب الوضعية المأساوية التي مرت بها الأمة لقرون عديدة دون توقف أو مراجعة.

(٢) وهكذا استمر الانحراف والتباعد عن غايات الإسلام ومفاهيمه الخالصة، ومنهجه السليم ولذا أجمل سيد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام فيما يرويه الطبري وابن الأثير في سنة ٣٤هـ أن التصور الحقيقي قد تغير شيئاً ما دون شك على عهد عثمان - وإن بقي في سياق الإسلام - لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم - طريد رسول الله مع أبيه يصرف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام، كما أن طبيعة عثمان الرحبة، وحبه الشديد لأهله، قد ساهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكان لها مقببات كثيرة، إذ أثار الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيراً حتى الآن، ولهذا أخذ المسلمون على عثمان عدة مؤاخذات لعل من أبرزها عزل الولاة السابقين، وتولية رجال من بني أمية من الطلقاء كالوليد بن عتبة ومعاوية وعبد بن أسعد بن أبي السرح وعبدالله بن عامر، وأرجع الحكم بن أبي العاص إلى المدينة، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قد نفاه إلى الطائف بسبب استهزائه بالنبي صلوات الله عليه وآله وتجسسه عليه مع ابنه مروان الذي جعله عثمان كاتباً له بل أصبح لمروان دوراً كبيراً ومكانة لا يستهان بها داخل بيت الخلافة، ولم يكن مرضياً عنه من قبل الصحابة. والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان، ومنها التوسع في العطايا من بيت مال المسلمين فقد منح زوج ابنته الحارث ابن الحكم يوم عرسه مئتي ألف درهم. فلما أصبح الصباح جاءه زيد ابن أرقم خازن مال المسلمين وقد بدأ في وجهه الحزن وترقرقت في عينه الدموع، فسأله أن يعفيه من عمله لما رأى من العطاء والإسراف في مال الله، ذلك أنه كان قد منح الزبير ذات يوم ستمائة ألف، ومنح طلحة مئتي ألف، ونفل مروان ابن الحكم خمس خراج إفريقية، وقد عاتبه في ذلك أناس من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب فأجاب: "إن لي قرابة ورحماً" فرد عليه أن أبا بكر وعمر لهما قرابة ورحم ولم يفعلوا، فقال: "إن أبا بكر وعمر كانا يحسبان في منع قرابتهما وأنا احتسب في إعطاء قرابتي" فقاموا عنه غاضبين ومن هنا بدأ الشد والجذب وبدأت الأسئلة تنهال على عثمان، لماذا أعطيت مروان هذا؟ ولماذا ضربت عمار ولماذا نقيت أبا ذر؟ ولماذا عزلت فلاناً مع صلاحه ووليت فلاناً مع فساده وعدم أهليته؟ ولماذا؟ ولماذا؟ وفي هذا يقول سيد قطب: "وأخيراً ثارت الثائرة على عثمان، واختلط فيها الحق بالباطل، والخير بالشر، ولكن لا بد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام، ويستشعرها بروحه، أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها كانت فورة من روح الإسلام منيها إلى عدم اغفال كيد اليهودي ابن سبأ - لعنه الله - العدالة الاجتماعية: سيد قطب، ص ٢١٢ - الذي هو أقرب أن يكون أسطورة من أن يكون واقعاً، لأنه من المستبعد أن شخصاً يستطيع أن يفعل ما ذكرته كتب التاريخ دون أن تكون الأمة هي التي سكتت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٤) حديث الافتراق من رواية كتب كثيرة في كتب الحديث: وذلك عندما تدخلت الأهواء، وسيطرت المصالح، وفسدت الأخلاق، تحول الخلاف إلى تفرق ونزاع نتج عنه تمزق المجتمع وتحوله إلى جماعات متصارعة يشغلها الكيد والجدل العقيم، وتستنفد طاقتها في البحث عن مساوئ خصومها، وقد ازداد الأمر سوءاً حينما قام التفرق والخصومة على أساس من الدين، حيث رويت في ذلك روايات شجعت على تأصيل الفرقة وتوسيع الشقة وتعميق الخلاف، وبدأ المختلفون يبرزون ما يراه كل منهم خصوصية وميزة له، وهذا بدوره ولد شعوراً بالنفرد بالحق والاختصاص بالنجاة فأهل الحديث ومن تابعهم ممن يسمون بأهل السنة يرون أنهم المقصودون دون غيرهم بما جاء في بعض الزيادات التي حشرت في الحديث من ذكر "الجماعة" وبعض المعتزلة بزعم أن في الحديث زيادة تنص على أن أبر الفرق وأتقها الفئة المعتزلة. والإمامية يقولون: "بحثنا عن المذاهب وعن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ناجية والباقي في النار". فوجدنا الفرقة الناجية هي الإمامية، لأنهم باينوا جميع المذاهب في أصول العقائد وتفردوا بها، مع أن جميع المذاهب قد اشتهرت فيها، والخلاف ظاهر بينهم في الإمامة، فتكون الإمامية بذلك هي الفرقة الناجية. ويذكر بعض علماء الزيدية أنه قد وقع البيان للفرقة الناجية بحديث الثقلين فقد ذكر الإمام أحمد بن سليمان الحديث فقال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أمة أخي موسى افتقرت إلى إحدى وسبعين فرقة، وافتقرت أمة أخي عيسى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي من بعدي إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها هالكة إلا فرقة واحدة" فلما سمع منه ذلك ضاق به المسلمون ذرعاً وضجوا بالبكاء، وأقبلوا عليه وقالوا يا رسول الله كيف لنا بطريق النجاة؟ وكيف لنا بمعرفة الناجية حتى نعتد عليها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إني تارك فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهم لن يفترقا حتى يردا على الحوض" ولا تنزرد كل الفرق في القول بأنها هي أبر الفرق وأتقها، ويروون في ذلك أحاديث ويستنتجون حججاً يرونها مقنعة وكافية سنة وشيعة ومعتزلة وأباضية وسلفية... الخ. ولهذا حرص الحكام على الترويج للحديث ليكون ذريعة لقمع خصومهم، بحجة أن الحاكم وأعوانه يمثلون جماعة أهل الحق الناجين، وقد عمل علماء الحكام على جعله سيفاً مسلواً على كل من أراد أن يعارضهم، فهو الفرقة الهالكة يجب القضاء عليه رغم العلل والقوادح التي تحيط بالحديث وتظهر عدم صحته بناءً على القواعد التي رسمها أهل الجرح والتعديل، لكن الكثير تحمس له لتعدد رواياته ليشتد بعضها بعضاً، ولأن التقوية بكثرة الطرق ليست على إطلاقها، فكم من حديث له طرق عدة ضعفوه، كما يبدو ذلك في كتب الجرح والتعديل والعلل وغيرها "إلى أن قال: ولعمري إن من يجترئ على سب علي بن أبي طالب، ولا يكون جندياً للحجاج لا يؤمن على نقل حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبهذا نعرف أن حديث معاوية - أي من ضمن رواه حديث الافتراق - هذا الذي يطيل بعضهم في تصحيحه لا وزن له " وذلك للأسف الشديد أضاع الأمة لقرون عديدة وجعلها تدور في حلقة مفرغة يتلاعب بأفكارها وتمنح حيزاً كبيراً في الساحة العامة لمن قال وقيل حتى يومنا هذا مما أوصل الأمة إلى أن تجعل من الإنسان قنبلة بشرية ينفجر في أي مكان بما فيها أشرف الأماكن وأقدسها بيوت الله قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَتَّعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خَزِيٍّ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. [سورة البقرة ١١٤].

- أخوة الإسلام وسماحته:

أجمل الدكتور مصطفى الشكعة -في كتابه إسلام بلا مذاهب- ما آلت إليها الأمة، أشير إلى بعض من ذلك حيث قال: "كان لتعدد المذاهب واختلاف الفرق أثر سيء خطير على الإسلام والمسلمين، فالإسلام الموسوم بالسماحة، الداعي إلى السلام قد تخضب دماء أبنائه بدماء بعض نتيجة للخلافات المذهبية وضيق الأفق الذي حل بهؤلاء المتعصبين لمذاهبهم، وانتهى في كثير من الأحيان -ولفترة طويلة من الزمن حتى يومنا هذا- إلى القتال الدامي التي ترك رواسب كثيرة في نفوس المسلمين بين أبناء الطوائف المختلفة (إسلام بلا مذاهب: ص ٥١٩).

إن هذه الفرقة القائلة، وتلك الدماء المراقبة على مر القرون لم تفد الإسلام في شيء، بل نخرت عظامه وأضعفت مقاومته لتيارات الغدر والاستعمار. إن هذه الخلافات من الخطورة بحيث أن كل مسلم صحيح الإسلام غير على دينه ووطنه لا بد أن يتحمل جانباً من تلك المسؤولية، سواءً أكان من السلف أم المسلمين المعاصرين (إسلام بلا مذاهب: ص ٥٢١).

وخلص الشكعة إلى اقتران الخلاف بالجهل والتعصب قائلاً: "فنحن نستطيع أن نقول إنه لا يوجد الخلاف الذي يؤدي إلى هذه الفرقة الطويلة الخطيرة بين السنة والإمامية والزيدية والأباضية، اللهم ما كان نتيجة الجهل والجمود والتعصب عند بعض من ينتسبون إلى واحدة من هذه المذاهب ممن جعل العامة لهم مكانة دينية مرموقة، ومن الميسور اذن أن تقترب هذه المذاهب الواحد من الآخر في سهولة ويسر، وأن تلتقي في صواب الطريق، وإن تعقد الجلسات والمؤتمرات التي تظلم السماحة، وتكون رائدة الخير للإسلام والمسلمين (إسلام بلا مذاهب: ص ٥٢٥)^(٥).

وإلى هذا ذكر العلامة يحيى قاسم أبو عواضة في مؤلفه "أنصار الله المنهج والقيادة" أن السيد حسين بدر الدين الحوثي على الرغم من زبديته المتأصلة وما قدمه من تصحيح لمسار الزيدية في هذه المرحلة، فإن تحركه العملي في بناء الأمة، ودعوته القرآنية الشاملة لم تكن تحت أي عنوان طائفي؛ لمعرفته بأن الأمة تعيش الأخطار الجسيمة في ظل التمزق الطائفي والمذهبي الذي يوظفه الأعداء في تفريقها وتمزيقها وإضعافها، ذلك أن التمزق الطائفي والمذهبي هو أكبر العوامل التي ساهمت في تمزيق النسيج الاجتماعي للأمة ورقة رابحة يستغلها أعداء هذه الأمة بتنفيذ مشاريعهم الاحتلالية، ولا يمكن أن يرتقي بها، وينفذها ويجمع شملها، ويوحد كلمتها إلا عنوان جامع وعام وشامل، وهذا العنوان للكلمة السواء التي بين الجميع هو "القرآن الكريم" بإعطائه الأولوية المطلقة والحاكمية المطلقة؛ لأن القرآن هو المرجع والحاكم على المسلمين جميعاً (أنصار الله المنهج والقيادة: يحيى قاسم أبو عواضة، ص ٤٥، ٤٦).

(٥) (إسلام بلا مذاهب: الشكعة، ص ٥٢٥. لم يذكر لنا التاريخ أن الزيدية دخلت في صراع مسلح مع أي مذهب من المذاهب المعتمدة وقد تعايشت الزيدية والشافعية ولا يزالان كذلك حتى يومنا هذا في محبة وتآخ قل نظيره في تاريخ المذاهب، وزيادة في التوضيح والتبيين أنه من المريح جداً الإشارة إليه أن الزيدي يدرس على يد العالم الشافعي، والعكس في أجواء مفعمة بالحب والود، وهذا ما يبرهن على صحة الحديث المشهور الصادر من أظهر فم صلوات الله عليه وعلى آله: "الإيمان يمان والحكمة يمانية، والفقهاء يمان".

وهذه دعوة من كل الخيرين من علماء الأمة، الذين يحملون همها، وعلى رأسهم الإمام زيد بن علي، الذي عاش وعاش بداية نشأة الفرق، فقال قولته المشهودة عندما رأى حال الأمة من الفرقة والضياع والسلطة الظالمة حيث قال لأحد أصحابه: "أما ترى هذه الثريا، أتري أحداً ينالها؟ قال صاحبه: "لا" فقال: "والله لو ددت أن يدي ملصقة بها فأقع إلى الأرض أو حيث أقع، فأنتقع قطعة قطعة وأن يجمع بين أمة محمد صلوات الله عليه وآله". (الإمام زيد: أبو زهرة، ص ٦). ذلك أنه لا يمكن للأمة الإسلامية أن تعتز بدينها، وتبني حضارتها المجيدة والخالدة بخلود مبادئ القرآن الكريم الذي يمثل المشروع الإلهي الأخير لأهل الأرض إلا بوحدة الكلمة وتحت قيادة واحدة رسالية ربانية تطبق هذا المشروع جملة وتفصيلاً.

وممن كان يريد لم شمل الأمة وإخراجها من الفرقة والخلاف المذهبي الإمام حسن البناء، وهو من المعاصرين ومن مؤسسي دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، وكذا الشيخ محمد رشيد رضا وغيرهما من علماء الإسلام الذين ساهموا في تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، وكان شعارهم: "نجتمع على ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه" كما كان لسيد قطب أيضاً باعاً كبيراً في هذا الجانب فكتبه ومؤلفاته شاهدة على ذلك، وكذا أشير إلى جهود المفكر الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله الذي بذل جهوداً كبيرة وكان على هذا الصعيد مفعماً بالتوتر والإشفاق على حاضر الأمة ومستقبلها، وله إسهام فكري ناصع في الكثير من مؤلفاته، وكان أشد الأمور تأثيراً في نفسه وأنكرها إلى قلبه وضميره: افتعال الأسباب لتفرق الكلمة وتمزيق الأمة، يخلقون الفرقة خلقاً ويقحموها في الواقع إقحاماً، لا لشيء إلا لرؤية الأمة الإسلامية أحزاباً متناحرة وطوائف متدابرة، يسوقون التهم جزافاً غير مباليين بعواقبها دخلوا في ميدان الفكر الإسلامي -بنية سيئة- بهذه الأخلاق المعلولة، فأساءوا إلى الإسلام شر إساءة... والمقام لا يتسع لأكثر، وكتبه شاهدة ناطقة بهومومه وآلامه على الأمة^(١).

وخلاصة لما سبق فإن المشاكل والقضايا التي تعانيها مجتمعاتنا عديدة، وهي مشاكل تمارس دوراً سيئاً في نظام العلاقات الداخلية، وما يترتب على ذلك من ضعف واهتراء وتدهور وغياب للحدود الدنيا من متطلبات الثقة وحسن الظن؛ لأنها أدران تنخر في الجسم الاجتماعي نخرًا وتقوض أسس القوة والعزة للأمة والعيش المشترك (تقوب من الوعي الاجتماعي: ص ٣١).

لذلك يجب أن يدرك الجميع أن أمراض الماضي التي تسبب الإلغاء والتهميش قد أوصلت الأوضاع في العالم الإسلامي إلى وضعية مهتزة، لعدم الحصول على المواطنة الحقيقية والمخلصة التي يجب تلاشيتها والعمل على توطيد عوامل العيش المشترك، وقبول شرائح المجتمع التي فُرضت كواقع سلبي على المسلمين، ما كان

(١) تأسس مركز التقريب عام ١٣٦٨هـ الموافق ١٩٤٧م في القاهرة، وبدأت الاجتماعات تتوالى استجابة لهذه الدعوة، وكان ممثل اليمن آنذاك العلامة علي المؤيد مؤلف كتاب رأي الصدع على أمالي أحمد بن عيسى بن زيد بن علي، وهذا ما أغاض -حقيقة- الموساد الإسرائيلي الصهيوني، فعملت المخابرات البريطانية أحد أذنيه على تقويض هذا التوجه المبارك، من ذلك قتل الإمام حسن البناء رحمه الله وإدخال عدد كبير من العلماء مع غيرهم السجن وهناك تم إعداد أدمغة مفخخة تستخدم للموساد أداة لتشويه هذا الدين الحنيف وهي ما تسمى بجماعة التكفير والهجرة، التي أسسها شكري أحمد مصطفى بعد خروجه من السجن عام ١٩٧١م، فكانوا المخترقين الذي تأسست من خلالها تنظيم القاعدة، والآن هم داعش وهلم جرأ، أيضاً تم تشويه تنظيم جماعة الإخوان وكانوا هؤلاء ينطلقون تحت مظلتها -أنظر موسوعة الفرق- كما عملت السلفية المتشددة تحت اسم الحنابلة، وكذا تشويه أهل البيت من قبل الغلاة، تاريخ المذاهب الإسلامية: لأبي زهرة، ص ١٩٠.

ينبغي أن يكون هذا الحال وهم أمة القرآن الذي ما إن تمسكوا به كانوا خير أمة أخرجت للناس ماضياً وحاضراً إلى آخر أيام الدنيا (المواطنة والعدالة السياسية: ص ١١٤، ١١٥).

- التعصب وأضراره في مسيرة الأمة:

ولهذا يجب التوقف والمراجعة الجادة، والنظر في الأسباب رغم وضوحها؛ لأن التحديات التي تواجه جميع الأمة كثيرة، والمبادئ المفروضة في سوق الأفكار عديدة، والمذاهب الاجتماعية والفكرية والسياسية عديدة، والمروجون لهذه المذاهب والأفكار والآراء يستخدمون شتى الوسائل التي وصلت إليها حضارة العصر لتزيينها وجعلها مقبولة عند الناس، لاسيما أن العالم قد صار قرية واحدة (معالم الثقافة الإسلامية: ص ٤، ٥).

ولذا ينبغي أن يتنبه الجميع لهذا الأمر لاسيما في ضوء تطورات الحروب التي يديرها ويدبرها أعداء الإسلام الذين يتمثلون في زمننا بأمريكا والصهيونية العالمية وبمناققي العرب والعجم للقضاء على الإسلام وأهله، وذلك بروح عالية من المسؤولية، ولعل من أهم القضايا التي ينبغي أن تعمل الأمة على علاجها بشكل سريع، هي تلك القضايا التي تنيرها عقلية التعصب الأعمى التي عملت على تفتيت الأمة وتشثيتها تحت عناوين ومسميات مختلفة لا تمت لديننا الحالي بصلة، وكانت السبب في هزيمتنا وتأخرنا (ثقوب من الوعي الاجتماعي: ص ٣٦). وانظر إسلام بلا مذاهب: ص ٥٢٤، ٥٢٧.

ومن هنا فإن الوصول إلى حقيقة العيش المشترك والسلم الاجتماعي يتطلب الوقوف ضد ظاهرة التعصب وكل النزعات الإقصائية التي لا ترى إلا ذاتها الضيقة؛ لأنها بمثابة الوعاء الحقيقي للكثير من الآثار السلبية؛ كونها نزعة مقبنة تطمس كل أنواع الخير وموجبات العدالة من نفس المتعصب وكيانه، سواءً أكان فرداً أم جماعة، فالمذهبية والطائفية والحزبية هي من دمرت شخصية الإنسان المسلم، وجعلت منه قرباناً لها، أو كائناً عاجزاً عن التفكير الصحيح وألغت ذاته وإرادته وحرية وأوصلته إلى مجرد مخلوق يتحرك وفقاً لرغبات القائمين عليها وأهوائهم استعباداً وتدميراً وتجهيلاً (ثقوب في الوعي الاجتماعي: ص ٣٩).

وهذا ما سبب الفرقة القاتلة، وأن تلك الدماء المهرقة على مر القرون لم تقف الإسلام في شيء، ولا حتى المتعصب، بل نخرت عظامه وأضعفت قوته ومقاومته لتيارات قذرة وللاحتلال، وأن هذا التعصب وهذه الخلافات من الخطورة بحيث تجعل من كل مسلم صحيح الإسلام غير على دينه ووطنه يتحمل جانباً من تلك المسؤولية، وسواءً كان من السلف أم من المسلمين المعاصرين (إسلام بلا مذاهب: ص ٥٢٤).

المبحث الثالث: السلم الاجتماعي

تعريف السلم: يطلق السلم بلغاته الثلاث السُّلم، والسَّلْم، والسَّلْم على ما يقابل حالة الحرب والصراع. قال ابن منظور: السُّلم، والسَّلْم الصلح. وتسالما: تصالحو، والخيل إذا تسالمت تسالمت لا تهيج بعضها بعضاً. والسلم: المسالم: تقول: أنا سلم لمن سالمني، وقوم سلم وسلم مسالمون (لسان العرب: ج ٧، ص ٢٤٢).

والسلم كلمة واضحة المعنى، تعبر عن ميل فطري في أعماق كل إنسان، وتحكي رغبة جامحة في أوساط كل مجتمع سوي، وتشكل غاية وهدفاً نبيلاً لجميع الأمم والشعوب، والحديث محل الدراسة سيكون عن السلم

الاجتماعي الذي يتشكل عندما تكون الأرض خصبة لجني ثمارها، من المساواة والعيش المشترك، وهذه مجتمعة تنتج مجتمعاً فاضلاً حضارياً حراً أبيضاً يبني ولا يهدم، وهي دعوة الرسل جميعاً سلام الله عليهم (السلم الاجتماعي مقوماته وحمائته: مجلة الكلمة العدد ٣٢/٢٠٠١ ص ٥، ٦ بتصرف).

الرؤية الإسلامية:

جاء الإسلام دعوة للسلم والسلام على مستوى العالم أجمع والبشرية جمعاء، قال تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [يونس آية (٢٥)].

وقد تكرر الحديث عن السلم والسلام في أكثر من خمسين آية في القرآن الكريم، يقول الله تعالى: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [المائدة آية (١٦)].

ويقرر القرآن الكريم المبدأ الأساس في العلاقات بين البشر وهو مبدأ السلم والتعاون يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [سورة الحجرات آية (١٣)].

كما يوجه الإسلام الأمة المسلمة إلى إنشاء العلاقات السليمة القائمة على البر والقسط والإحسان مع الأمم الأخرى، أو المواجهة فهي محصورة في حدود من يمارس العدوان ضد الإسلام والمسلمين، أو يمنع حركة الدعوة إلى الله، يقول تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» [البقرة آية (١٩)].

ويقول تعالى: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» [الممتحنة آية (٨)].

وحتى لو نشبت الحرب والمعركة مع المعادين المعتدين فإن الإسلام يشجع على اغتنام أي فرصة لإيقاف الحرب والقتال إذا ما أظهر الطرف الآخر إرادته في التراجع عن عدوانه والرغبة في إقامة علاقات سليمة (السلم الاجتماعي مقوماته وحمائته: ص ٨). يقول تعالى: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» [الأنفال آية (٦١)]، ويقول تعالى: «فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا» [النساء آية (٩)].

ويقول الإمام علي في عهده لمالك الأشر: "ولا تدفعن صلحاً دعاك والله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك" (نهج البلاغة خطبة رقم ٢٩١ ص ٥٩٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» (الخطيب عن ابن مسعود ج ٨، ص ٣٧٠). وفي رواية: «إلا من ظلم معاهداً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة» (أبو داود رقم ٣٠٥٢). وفي رواية «ومن قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً» (البخاري رقم ٢٩٩٥ والنسائي رقم ٤٧٥٠).

السلم الداخلي:

وإذا كانت هذه دعوة الإسلام على المستوى العالمي وفي العلاقة بين الأمة وسواها، فمن الطبيعي أن تكون أكثر تأكيداً وإلحاحاً على الصعيد الداخلي، لذلك تناولت العديد من آيات القرآن الكريم وتشريعاته الإسلامية قضية الوحدة والوئام والسلم ضمن الكيان الإسلامي يقول تعالى: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء آية (٩٢)]. ويقول تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» [آل عمران آية (١٠٣)]. وفي إشارة واضحة إلى الآثار التدميرية للنزاع الداخلي، يقول الله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَازَعُوا فَنفَشُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» [الأنفال آية (٤٦)].

ولذا ظل الإنسان هو المحور الأساس في البيان القرآني، يدور عليه القول في سائر الأغراض، وتعود إليه المعاني في سائر المقامات، ليس في مجال الخطاب التكليفي فحسب مما يبدو بديهياً، إذ إن القرآن خطاب من الله تعالى للإنسان، بل في كل مجالات البيان للخلق الإلهي، وللناية بالكون وما فيه، وفي كل مقامات الشرح الوجودي في مختلف الأغراض، وهو ما يشهد بأن للإنسان مقاماً في القرآن الكريم يغيّر مقام الموجودات الأخرى جميعاً التي سخرت له ووجدت من أجله (المواطنة في الاسلام: ص ٦٥)، وهذا التكريم من الله للإنسان، يتمثل في أن جعله سيّداً في كوكب الأرض ورعاه بالمد الإلهي، والوحي السماوي، والشرع القويم، وأرسل له الأنبياء والمرسلين، وأنزل عليه الكتب؛ ليسير على الخط المستقيم، ويحقق الخلافة في الأرض، وبين الله له الصراط المستقيم في الحقوق والواجبات قال تعالى: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [الأنعام آية (١٥٣)]. ولكن الإنسان ظلوم جهول، جُبل على العدوان والشر أحياناً، وكثيراً ما يكون ذنباً على أخيه الإنسان إن لم يكن أشد فتكاً بالناس من الوحوش والحيوان، فقد ظلم الإنسان للإنسان في صور عديدة، وتحت شعارات مختلفة، ولأسباب متنوعة أقلقتم السلم الاجتماعي، وأحياناً قوضته (حقوق الإنسان في الاسلام: الزحيلي، ص ١).

يقول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» [سورة البقرة آية (٢٠٨)]، وقال تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» [سورة التوبة آية (٧١)] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (البخاري: رقم ٥٦٨٨. مسلم: رقم ٢٥٨٦).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (البخاري: رقم ١٠) وقال أيضاً: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» (مسلم: رقم ٣/٣٠٥) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (مسلم رقم ٦٧).

لقد دعا الإسلام الناس جميعاً إلى البر والرحمة، والإخاء والمودة، والتعاون والوفاء، والصدقة والإحسان، ووفاء الوعد وأداء الأمانة، وتطهير القلب وتخليصه من الشوائب، كما دعا إلى العدل والتسامح، والعفو والمغفرة، والصبر والثبات، ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحث على النصيحة وغير ذلك من مكارم الأخلاق والفضائل (التكريم الإلهي للإنسان: الزحيلي، ص ١٠٠)، قال تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [آل عمران (١١٠)]، وقال تعالى: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ» [المائدة آية (٢)]، وهذه السمات والأخلاق تزين الانسانية وتعلي من شأنها وتنسق بين أفرادها وتصون العلاقات الجماعية -السلم الاجتماعي- وتوجهها إلى الخير، والكمال لتتصور الحياة البشرية في أجمل صورها، وأحسن أحوالها، وتتجنب الرذيلة والفساد الأخلاقي والاجتماعي وفي هذا قال سيد قطب: "أن الدخول إلى الاسلام وحده كاف لأن يجعل المسلم يدخل في عالم كله سلم وكله سلام...عالم كله ثقة واطمئنان وكله رضا واستقرار، لا حيرة ولا قلق ولا شرور ولا ضلال، سلام مع النفس والضمير، سلام مع العقل والمنطق، سلام مع الناس والأحياء، سلام مع الوجود كله، ومع كل موجود سلام يرون في السريرة، وسلام يظل المجتمع، سلام في الأرض، وسلام في السماء (في ظلال القرآن: سيد قطب، ص ٢٩٨).

أنها الميزة التي يتميز بها الإسلام الذي يضمن للبشرية كل متطلبات الحياة الكريمة الآمنة المستقيمة المتألقة إلى الكمالات غير المتناهية للاستخلاف الإلهي والتمتع بكل ما أودعه الله في هذا الكوكب قال تعالى: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [سورة لقمان: آية (٢٧)] ذلك أن الإسلام كلمات الله الباقية لكافة الخلق، وهو الهداية العامة الخالدة للأحمر والأسود، ورحمة الله الشاملة للعالمين، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولهذا ضمنه الله من التعاليم ما يليق بحال البشر أينما كانوا، وكيفما كانوا (الخصائص العامة للإسلام: ص ١٦١).

ولهذا فالسلم الاجتماعي في الاسلام فريضة شرعية، وضرورة حياتية، لا يستغنى عنها إنسان ولا حيوان ولا طير، ولا جماد؛ لأنه المحور الأساس والأرضية الصالحة لبناء الحضارة الإسلامية؛ ذلك أن السلم الاجتماعي يحقق على أرض الواقع خلو أجواء المجتمع من العداوات والصراعات، بحيث يصير المجتمع مجتمعاً متحاباً كما وصفه الله تعالى: «وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [سورة الحشر آية (٩)]، وقال رسول الله صلوات الله عليه وآله: «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا» (البخاري: رقم ٣٠٠. الترمذي في السنن: رقم ٢٣٤٦. وقال حسن غريب).

وبذلك فإنه متى انعدم الأمن - وهو أول حقوق الإنسان - فإنه لا استمتاع للإنسان بالحياة؛ لأنه مهما توافرت له في صورتها الرائعة فإنه لا مذاق لها ولا لذة بدون أن يتوافر الأمن الذي يهواه كل إنسان مهما كان وضعه المادي أو المعنوي (السلم الاجتماعي: ضرورته ومبادئه في ضوء الشريعة الإسلامية: ص ٣٠٦).

- مجتمع الفضيلة:

إن المجتمع الآمن هو مجتمع الإبداع والإنتاج وحرية التدين والتفكير والتعبير وإن ما قدمه الاسلام من قيم تربية وأخلاقية وتشريعية تؤدي إلى تحقيق العدالة والمساواة على جميع الأصعدة، وبالتالي يتم القضاء على كل الأسباب التي تحول دون العيش المشترك، والسلم الاجتماعي، لتحقيق مجتمع الفضيلة والكمال، والحضارة الإسلامية؛ ذلك أن الدين الإسلامي يمتلك القيم والمعايير الخالدة والمثمرة المتأنتية من الوحي، والمقصود بها الإنسان، الأمر الذي يحمي مسيرته، ويضمن له الخلود والبقاء والقدرة على علاج أي وهن حضاري يلحق بالأمة

في فترات السقوط، ويؤهلها إلى معاودة النهوض إن وجد ذلك (كتاب الأمة: العدد ١٢١/١٤٢٨هـ، الحضارة الإسلامية جذور وامتداد: ص ٦ وما بعدها. بتصرف).

والحضارة الإسلامية التي أرادها الله سبحانه لعباده بقوله جل من قائل: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [سورة الأنبياء آية (١٠)] وقال تعالى: « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » [سورة الزخرف آية (٤٤)]، هي القائمة بقيام المشروع الإلهي والمتمثل في القرآن الكريم والسنة الصحيحة؛ لأنهما أصلان تقوم عليهما مقومات الحضارة المستدامة. قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [سورة الأعراف (٩٦)].

ولذا قال سيد قطب: "حين يقوم الإنسان بالخلافة عن الله في أرضه على وجهها الصحيح بأن يخلص عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره، وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بأية شرعية لمنهج غيره، وأن يحكم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها، وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة، ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله بالنواميس الكونية التي أودعها الله في هذا الكون المادي، ويستخدمها في ترفيه الحياة، وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها، فقد جعل الله لتلك النواميس الكونية اختامها، ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة" (معالم في الطريق: سيد قطب ص ١٠٠).

وقضية النهوض والأمن والتنمية بكل أبعادها وجوانبها، يبقى محورها حرية الإنسان وكرامته؛ لأن ذلك هو البذرة الأساسية التي تنتج كل شيء، وتؤدي إلى أن يعم السلم الاجتماعي، فالظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي يفسد كل شيء بما في ذلك الإنسان محور التغيير والتنمية ووسيلته وهدفه؛ فالظلم يوقف النمو ويقتل الإبداع، ويقضي على إنسانية الإنسان وكرامته، ثم إنه يعيث بأمن المجتمع، ويكريس التخلف في المجالات كافة (المصدر السابق. وانظر كتاب الأمة العدد ١٠٧/١٤٢٦هـ عولمة الجريمة ص ١٥).

وكم كنت أود الاستزادة في هذا الموضوع لأهميته، وهوى النفس له، كون الواقع الأليم للأمة مؤلم بما تعنيه الكلمة، وهي تمتلك هذا النعيم الإلهي والإستخلاف الحقيقي لمراد الله من خلقه، ومع هذا يجهل الإنسان ويتنكر ويجحد هذا التشريف له على سائر المخلوقات، لقد وجدت هذه النعم من أجله ولإسعاده السعادة التي تتجاوز هوى النفس وهي نعم تجف البحار لو صارت حبراً لحصرها إن تم التحرك في الحياة وفقاً لقانون الله، قال تعالى: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» [سورة النحل: آية (١٨)].

ولذلك سأشير للضمانات المستدامة للسلم الاجتماعي لاستمرار الحياة الكريمة الآمنة المستقرة:

١- الإيمان وقوة الضمير الديني:

إن الإيمان بالله وبالعالم الغيب وبالثواب والعقاب في الآخرة، لن يكون له معنى من دون الالتزام بقانون الله، وأحكام الشريعة المنزلة من لدنه لعباده وتعاليمها والخضوع لها، وتطبيقها في حياة الفرد والمجتمع مصداقاً لقوله

تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ» [سورة لقمان: آية (٨)]. فالعمل الصالح هو المصدق العملي والواقع للإيمان، وهذا الجمع بين الإيمان والعمل الصالح هو الذي يصنع انساناً نقياً ورعاً ذا ضمير حي وروح تخشى السقوط في المعاصي والمحرمات (الجرائم المقلقة للسلم الاجتماعي) والآثام والمظالم، وتسارع -رغبة في ثواب الآخرة- في الخيرات، وتتنافس في أعمال البر والخير، وتبتعد عن كل ما فيه مضرة للنفس أو لغيره؛ لأن مقتضى الإيمان خشية الله واستشعار مراقبته وعلمه واطلاعه على ما يقوم به الإنسان المسلم من قول أو فعل (مجلة المنهاج: العدد ٣١/٣٠٣ التدابير الوقائية من الجريمة في الشريعة الإسلامية: ص ١٠٦) (٧).

٢- السلطة والنظام:

لا يستغني أي مجتمع بشري عن سلطة حاكمه ونظام سائد، يتحمل إدارة شؤون المجتمع، وتعمل القوى المختلفة تحت سقف هيئته- وهذه القوى لو استشعرت عظمة المسؤولية أمام الله لما حصل هذا التمزق- وإلا كان البديل هو الفوضى وتصارع القوى والإرادات- كما هو حاصل في زمننا في غالب بلدان المسلمين من القتل والتدمير -جاء في لسان العرب: قوم فوضى: مختلطون (لسان العرب: ج ١١، ص ٢٣٨)، وقيل: هم الذين لا أمير لهم ولا من يجمعهم، قال الأفوه الأودي:

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا (٨)

والحديث عن السلطة والنظام عند المسلمين ذو شجون لا يسع المجال لتناولها، ذلك أنه قد كثر التنظير لها في الكتب المتعددة من كل طوائف المسلمين ومذاهبهم التي ابتدعوها لأنفسهم ابتداءً، فما استطاعوا أن يستقروا على منهج واحد يصير نافذاً بينهم، فالكل ينظر لا غير، مما أفقد الساحة الإسلامية السلم الاجتماعي لقرون عديدة ابتداء بموقعة الجمل وهلم جرا... إلى يومنا هذا من حروب وفتن حصدت أعداداً من البشر يندى لها الجبين، وخلال أربعين عاماً ربما حصدت الحروب ما بين المسلمين ما يزيد على عشرة مليون نفس بحرب العراق وإيران مروراً بالجزائر وأفغانستان، ثم العراق مرة أخرى والسودان، وإلى ما هو قائم من العدوان على اليمن والذي يمثل حرباً عالمية اشترك فيها الداخل ممثلاً بالخونة وانتهاء بالتدخل الخارجي على رأسه أمريكا التي أعلن العدوان عدوانه منها على لسان وزير خارجية السعودية، كذلك سوريا وليبيا، وما يجري أيضاً من تفجيرات في

(٧) إن قوة الإيمان منطلق وقاعدة أساسية في صياغة الإنسان المسلم نفسياً وروحياً، وتأتي باقي التعاليم والأحكام والفرائض والواجبات لتصنع بين يدي الإنسان المسلم برنامجاً حياتياً متكاملًا، يوصله إلى مراتب الكمال الروحي والجسدي يقول تعالى: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) العنكبوت ٤٥. وكذا بقية الفرائض والواجبات جميعاً أعمال تزكي الروح والنفس وتهذبها وتساعد في تقييدها وتعطي الإنسان المناعة الكافية والقدرة الذاتية الداخلية الهائلة في مقاومة نوازغ الشر في داخله، والرغبات الشيطانية التي تدفعه باتجاه تجاوز حدود الله والاعتداء على حقوق الآخرين... هذا هو منهج الإسلام الذي ينطلق من هداية الروح وتربية القلب أولاً، ومن ثم تنعكس هذه الهداية تهذيباً للسلوك وتقويماً له، وخوفاً من الله في السر والعلن، وهذه أعلى مراتب التقوى التي تجعل ضمير الإنسان المسلم حياً لؤاماً، يكفه عن الشر في جميع الحالات التي لا يراها أحد ولا تتناولها يد القانون. المصدر نفسه وانظر: ظلال القرآن: سيد قطب، ج ٦، ص ٨٨١.

(٨) الأفوه بن عمر بن مالك الأودي المذحجي ولد سنة ٤٥٠م وهو شاعر ويعد من أشهر حكماء العرب... لقب بالأفوه لأنه كان مفوهاً مجيداً، قال ابن جني: "رجل مفوه إذا أجاد القول، لأنه يخرج من فيه، ومنه الأفوه الأودي" وكان من أهل سرو مذحج، وانتهت إليه أمر مذحج كلها، موسوعة الشعر العربي جوجل.

الأسواق والمساجد في كثير من الدول الإسلامية على أيدي ما يسمى داعش التي ظهر أمرها أنها أداة للماسونية العالمية بوضوح كوضوح الشمس^(٩).

والإسلام لم يأت بنظرية في القيادة فقط وإنما صنع النموذج القيادي القدوة لكل البشر وفي كل العصور، وهذه القدوة تتمثل في الأنبياء - ومن سار على منهجهم - الذين ضربوا المثل الرائع والقدوة الحسنة في كل الأبعاد والجوانب في الأخلاق وفي الصبر والاستقامة وتحمل المسؤولية والتضحية وفي التخطيط والقيادة وفي الإدارة والمعادلة، وقد ثبتت هذه الحقيقة في القرآن الكريم في قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» [سورة الأحزاب آية (٢١)].

وقد اعترف بعض علماء الغرب الذين درسوا سيرة الرسول - محمد صلى الله عليه وآله وسلم - وحياته بأن هذا النبي هو الذي يستطيع أن يعالج أزمة حضارة الإنسان المعاصرة ويجعل البشرية تعيش الألفة والتعاون (الحركة الإسلامية ومعالم المنهج الحضاري: ص ١٠٧).

والله سبحانه وتعالى لم يترك البشرية منذ خلقها بلا قيادات تكون نموذجاً لحياة البشر فقد بعث فيها حسب الموروثات التاريخية (٢١٤) ألف نبي ورسول ومنذ خلق الإنسان كانت هناك قيادة تمثلت في نبي الله (آدم) عليه السلام بل إن الله سبحانه وتعالى خلق القيادة أولاً في شخص النبي آدم عليه السلام ولعل الحكمة في ذلك لأمرين، الأول: ضرورة وجود النموذج الإنساني القدوة. الثاني: أن القائد هو الذي ينبغي أن يصنع المجتمع الصالح على وفق منهج الرسالة السماوية (المصدر السابق).

وفي قوله تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» [سورة النحل: آية (٣٦)] يتضح أن القيادة ظاهرة تاريخية تحتاجها كل الأمم والحضارات مهما تقدم الإنسان وارتقى في درجات العلم والتكنولوجيا، وهذا يعني بصريح العبارة أن منهج الرسول - صلوات الله عليه وعلى آله - هو الإسلام وهو الحل الشامل والجذري لمشكلة الإنسان الراهنة بشكل عام (المصدر السابق).

ومن خلال هذه القيادة الربانية الرسالية ينتج السلم الاجتماعي، الذي يتطلب الآتي:

١- الأمن والتقدم:

إن تحقيق السلم الاجتماعي عامل أساس لتوفير الأمن والاستقرار في المجتمع، وإذا ما فقدت حالة السلم الداخلي أو ضعف، فإن النتيجة الطبيعية لذلك هو تدهور الأمن وزعزعة الاستقرار حيث تسود حالة الخصام والاحتراب - كما هو حاصل في غالب بلدان الإسلام - فيسعى كل طرف لإيقاع أكبر قدر من الأذى والضرر بالطرف الآخر، وتضيق الحدود وتنتهك الحرمات، وتدمر المصالح العامة، حين تشعر كل جهة أنها مهددة في وجودها ومصالحها، فتندفع باتجاه البطش والانتقام وإحراز أكبر مساحة من السيطرة والغلبة (السلم الاجتماعي:

(٩) أخطر ما يهدد السلم الاجتماعي استباحة الدماء، وهي جريمة تفوق كل الجرائم، قال صلوات الله عليه وآله: (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) البخاري: رقم ٦٨٦٢. وقال: (لو اجتمع من في الأرض ومن في السماء على قتل مسلم لكبهم الله جميعاً في النار) مسلم: رقم ١٦٧٨، والترمذي رقم ١٣٩٨.

ص ٦) وهو ما عليه حال المسلمين في معظم بلدانهم - للأسف الشديد - وعندهم كتاب الله شاهد عليهم، وينطبق على هذه الحالة ما روي عن الإمام علي أنه قال: «من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصر فيها ظلم، ولا يستطيع أن يتقي الله من خصم» (نهج البلاغة: الحكمة رقم ٣٠٠، ص ٦٩٥).

وفي مثل هذا السياق يقول المفتي العام لعمان: "ولقد وجدنا شيخاً معمماً يقود حركة جهادية وينتصر على الأعداء، ويمكن الله له، ثم بعد ذلك يتنازع مع الآخرين من أجل السلطة والوصول إلى مركز القيادة، وعندما يهمل ويتولى القيادة غيره، ويأتي العدو بعد ذلك ليضرب هذا الغير ويبيد راحة بسبب ما يصيب أبناء ملته وبلدته وجلدته من الدمار، ويقول إن ضميره مرتاح من هذا، ذلك كله راجع إلى تحكيم الهوى، ومنشؤه فقدان التصور الصحيح، وعدم إدراك ما للإيمان من أثر في نفس الإنسان... فلذلك قلت إن الأمة بحاجة إلى صياغة قرآنية ليكوّن تصوراً صحيحاً مبنياً على دعائم الإيمان من أدلة القرآن والسنة الثابتة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام" (إعادة صياغة الأمة: ص ١٣).

وهذا ما ينطبق على ما يجري في اليمن من فتاوى معممين كان يؤمل منهم غير ما أحلوا من عدوان على اليمن بل وشاركوا فيه ولهم اليد الطولى في إمداد العدو بالمقاتلين.

ويمضي قائلاً: أي مفتي عمان: "وطالما نادينا وقلنا بأن على الأمة أن تستقل وتتخلص من التبعية العمياء لغيرها، فهي أمة أرادها الله سبحانه وتعالى أن تكون عزيزة، وهي لا تسعد ولا تسلم ولا تتمكن من تبوأ مكانتها الجديرة بتبونها إلا عندما تتخلص من هوى موالاتها لأعدائها، لأنه انسياق الناس وراء الرغبة الغربية في تدوير قيم الأمة وإنني أدعو إلى أن تكون هذه الأمة قوية غير خاضعة للأمم الأخرى، تعول على فكرها، الذي جاء به دينها لا على الأفكار المستوردة، ولا تبني أفكارها أيضاً على ما تتلقفه من هنا وهناك (إعادة صياغة الأمة: ص ٣٠).

وفي هذا نجد الدكتور عبدالحميد أحمد أبو سليمان في كتابه (أزمة العقل المسلم) قد وصف حال الأمة خير توصيف منذ الفتنة الكبرى وحتى يومنا هذا أشير إلى بعض ما يتعلق بالموضوع محل الدراسة.

إن هذه كلها مظاهر وأمراض وآفات أساسية نشأت - كحقيقة تاريخية - عندما سيطر الأعراب من رجال القبائل على جيش الإسلام، وسقطت الخلافة لتقوم مقامها سلطان القبيلة والعصبية والاستبداد والاستنثار، وكان طبيعياً، وقد تغيرت القاعدة السياسية، أن يستقر الأمر لسلطان بني أمية وأن لا يستقر لعثمان أو علي أو الحسن من بعده رضي الله عنهم جميعاً (أزمة العقل المسلم: ص ٣٥، ٣٦).

ومن بعدهم الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير ومحمد ذي النفس الزكية، وزيد بن علي، وسواهم في حروب أهلية طاحنة كانت الغلبة فيها للقاعدة القبلية لتزداد تمكناً بتقدم الزمن، وهكذا كانت بداية الانحراف والتباعد عن غايات الإسلام ومفاهيمه الخالصة ومنهجية السلم، فاختلف السلم الاجتماعي والعيش المشترك وحل التعصب للجنس العربي، لتنتهي الأمة إلى قيادة ونظام هو خليط من إسلام وجاهلية سيطر على عقليتها وتربيتها تمثل في عقلية القبيلة والشعوبية والطائفية ومفاهيمها التي تمزق النسيج المسلم وتؤدي إلى تدهور الفكر

والأنظمة الإسلامية وانحطاطها، فلم يبق لحضارة الإسلام وعطاء الأمة إلا بقايا طاقة من معالم الإسلام ونور هدايته في النفوس (أزمة العقل المسلم: ص ٤٨).

ويمضي قائلاً: "وما يزال العالم الإسلامي-خاصة العالم العربي- على مر هذه القرون مريضاً ممزقاً متدهوراً في صورته العامة، وما تزال الهوية الحضارية بينه وبين بلاد العالم المتقدمة تزداد عمقاً واتساعاً لغير مصلحته، لأن الفرق بين فكر الأمم المتقدمة وزعاماتها وأنظمتها في أرضها وفي من يتبعها وبين فكر الأمم المتخلفة وزعاماتها وأنظمتها أن الأمم المتقدمة فكراً وأنظمة وحلولاً وزعامات حقيقة تتبع من كيان الأمة ونفسياتها وقيمتها وحاجاتها، وتمثل فكراً وسياسات وتعليمات تجعل من القادة والأمة فرق عمل للبناء ومواصلة مسيرة هادفة في حياة تلك الأمم" (أزمة العقل المسلم: ص ٤٨).

ولذا فإن الحل المطلوب لا بد أن يبدأ من دينهم وأرضهم وتاريخهم وواقعهم، ليواجهوا به تحديات العصر الصهيوني الأمريكي ومخاطر منافقي العرب، وإلا فإن التجارب الفاشلة المريرة التي عانى منها العالم الإسلامي من خلال القرون الماضية لن تساوي فتيلاً تجاه ما ينتظر من مشكلات جديدة أشد حصاداً وأمر مما ذاقته الأمة وبالأحرى حتى اليوم (أزمة العقل المسلم: بتصرف).

٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يبين الإسلام معنى المسؤولية الجماعية والتضامن بين أفراد المجتمع الإسلامي، ويتمثل ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو حق لكل فرد، وواجب كفائي عليه في الوقت نفسه يقول سبحانه وتعالى: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [سورة آل عمران: آية (١٠٤)]. ويقول سبحانه وتعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [سورة آل عمران: آية (١١٠)] ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (مسلم: رقم ٧٣. مسند أحمد: رقم ١١٢٤٦). وعنه صلوات الله عليه وعلى آله: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» (الترمذي عن حذيفة: رقم ٢٠/١٩٣ وقال حديث حسن).

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالبر والتقوى امتثالاً وطاعة لله سبحانه الذي يقول: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ» [المائدة آية (٢)]، ذلك كله يصنع فضاءً اجتماعياً نظيفاً يصعب فيه انتشار الفواحش والجرائم أو شيوعها. يقول الماوردي: "أكد زواجه بإنكار المنكر لها، فأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليكون الأمر بالمعروف تأكيداً لأوامره، والنهي عن المنكر تأكيداً لزواجه، لأن النفوس الآثمة قد ألتهتها الصبوة عن اتباع الأمر، وأذهلتها الشهوات عن تذكر الزواجر فكان إنكار المجالسين أجزء له، وتوبيخ المخالطين أبلغ فيها (الأحكام السلطانية: ص ٤٥٠. التشريع الجنائي: ص ١١٧. وانظر في هذا كله مجلة المنهاج العدد ٣١ لسنة ٢٠٠٣، التدابير الوقائية، ص ١٢٤، ١٢٥). وفي ذلك قال

النبى صلوات الله عليه وآله وسلم: «ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعذاب محتضر» (وسائل الشيعة: الحر العاملي رقم ٢١١٧٦، وبمثله عن ابن عباس: «أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم... فيعمهم الله بالعذاب». ابن كثير ٣٨/٤).

٣- تشريع العقوبات الرادعة واحترام مبدأ سيادة أحكام الشرع:

إن اهتمام الإسلام الأول من أجل السلم الاجتماعي الكامل ليس بالعقاب، وإنما بتهيئة مناخ اجتماعي تربوي يسمح بتنشئة المسلم تنشئة سوية من شأنها أن تنتج بفطرته نحو الاستقامة، وإقامة مجتمع العدل والمساواة والعيش المشترك والذي يحقق التوازن المطلوب بين الحقوق والواجبات وتجفيف منابع الجريمة والانحراف، ودوافعها وكل ما يقلق السلم الاجتماعي الذي يوفر بيئة نظيفة وأجواء مستقرة تعمل على الرقي الحضاري الذي ينعم به الفرد والجماعة والأمة والبشرية جميعاً (مجلة المنهاج: العدد ٣١ لسنة ٢٠٠٣م، التدابير الوقائية من الجريمة، ص ١٠٨، ١٠٩، بتصرف).

ولذا فإن السلم الاجتماعي من الأمور التي يطمح ويبطمح كل البشرية لأهميته وضرورته ولو أجرى استفتاء واستبيان عام في أي مجتمع بشري، لما صوت أحد لصالح الاحتراب والنزاع الداخلي؛ لأن أجواء المجتمع الخالي من العداوات والصراعات يجعله مهيباً للتعاون والانطلاق ويحفظ قوته من الهدر والضياع، ولدى المجتمع المسلم من التعاليم العظيمة نموذج من منظومة مفاهيمية ثقافية متكاملة، تشكل رؤية الإسلام وبرنامجه، لتوطيد السلم الاجتماعي وتنميته وحمايته (السلم الاجتماعي: ص ٢٠).

ونظراً للمنعطف الخطير الذي اتخذته الطائفية والمذهبية والحزبية داخل المجتمعات العربية وتداعياته على السلم الاجتماعي والاستقرار السياسي، ظهرت التفرقة بين المرء وأخيه بسبب الجهل والخطاب التكفيرى المضاد لوحدة الصف والكلمة، وأصبح من المؤكد أنه لا بديل عن ثقافة التقريب من أجل مواجهة الفتنة الطائفية ووأدها (البدائل العملية لمواجهة المشروع الطائفي: ص ١٣٨) فهي التي كانت وما تزال ذلك السلاح الخطير الذي جرده الطغاة والجبابة ضد المجتمعات الإنسانية على مر التاريخ البشري، حيث لعبوا بهذه الورقة أقدّر الأدوار في تمزيق الشعوب، وتفريق الكلمة وتبديد الصفوف؛ إذ إنهم اختلفوا مذاهب فكرية متنوعة ومتناقضة في كثير من الأحيان ثم افتعلت من أجلها صراعات حادة- لا زالت الأمة تعاني منها- أثارت المشاحنات والجدل والمناظرات العقيمة، وغالباً ما أهرقت في غمراتها الدماء (الطائفية سلاح العدو الأخير والخطير: ص ١٩، ٢٠، ٢١).

إن إشاعة الفرقة بين مختلف الفئات والجماعات من تفرقة قبلية ممقوتة إلى عصبية جاهلية قومية وأخرى إقليمية ضيقة أو حزبية بغیضة وشرها جميعاً سياسة الفرقة المذهبية الطائفية -الحزبية- من أجل أن يبقى للطاغوت أسلوباً مفضلاً لتسلطه، فالدماء تراق فوق الأرض بسبب هذه المسميات التي لا تمت للدين الاسلامي الحنيف بصله (الطائفية سلاح العدو الأخير والخطير: ص ١٩، ٢٠، ٢١).

وللمحافظة على وحدة الأمة والسلم الاجتماعي لا بد من العودة إلى الأصالة الإسلامية وإعادة صياغة المناهج بالبحث والدراسة لينطلق المجتمع بمجمله من قاعدة الممارسة والإدراك الخير نحو الإسلام ومقاصده

وضوابطه الاجتماعية والحضارية، وهذا معناه إعادة صياغة التعليم بشقيه الروحي القيمي، والفني (العملي) العملية في مراحلها كافة والعناية بمنطلقاته وفلسفته الإسلامية وبتعمقه وتخصسه العلمي في كل فروع المعرفة لاسيما جانب العلوم الاجتماعية والانسانية (أزمة العقل المسلم: ص ٤٢، ٤٣).

كما أن الأصالة الإسلامية المعاصرة في نهاية المطاف سوف تؤدي إلى إعادة ترتيب الأولويات وإعادة صياغة المنهج والفكر بحيث تتوافر وسائل التربية الإسلامية السليمة، ويعاد بناء المؤسسات والأنظمة والإجراءات السياسية والاجتماعية بما يحقق التكامل والتسلسل الصحيح في حركة المجتمع نحو إعادة البناء على أساس قيم الإسلام ومقاصده السامية (أزمة العقل المسلم: ص ٤٢، ٤٣). والله ولي التوفيق

النتائج: بعد هذه الرحلة المجتمعية مع مشروع الله وقانونه لعباده أخلص للآتي:

- ١- إن الإنسان محور الرسالات السماوية، وهو المقصود غايةً وهدفاً، وإن الإسلام قد حرص على وجود الإنسان الصالح، والإنسان الكامل المترقي في كمالات الاستخلاف بناءً على الحقوق والأحكام التي حددها قانون الله، ليكون إنساناً نافعاً لنفسه ولمجتمعه، ومتعاوناً مع سائر البشر.
- ٢- جاء الإسلام دعوةً للمساواة بين الناس فلا يطغى الإنسان على أخيه الإنسان مهما اختلف لونه أو جنسه أو غناه أو فقره، لأن المساواة تنتج السلم والسلام على مستوى العالم والبشرية جميعاً.
- ٣- أقام الإسلام الوحدة الإنسانية بين شعوب الأرض ليكونوا أسرة كبيرة، تتساوى في المعاملة، وتتفاضل بالتقوى والعمل، وحارب التفرقة العنصرية، والعصبية الجاهلية، دون أن يؤثر ذلك على الانتماء للأمة والدفاع عن القوم والوطن.
- ٤- يمتاز الإسلام برعاية الإنسانية من حيث العموم، وبمنظومة متكاملة ترعاه المسيرة التعايشية بين الشعوب والقبائل، ويجمع شتات العروق والفصائل، ويضفي عليها محاسن الأخلاق، وأحسن الشمائل، شعارها وديارها السلام ومنهجها وفكرها، لا يحيد عنها الإسلام قولاً وعملاً.
- ٥- إن بناء المواطنة وصياغة العلاقات الداخلية للمجتمع الواحد على أسس المساواة، والعيش المشترك هو الذي يساهم بشكل كبير في ضبط الحالة الاجتماعية، لينتج المجتمع صوب القضايا الحيوية والنوعية.
- ٦- إن بناء المواطنة لا يتم على قاعدة إقصاء الفئات والشرائح وتهميشها على قاعدة التمايز العنصري؛ لأن هذا التمييز والتهميش يؤسس لتصدع صرح الأمة، ويؤدي إلى حروب وفتن اجتماعية يستحيل معها أن تبني أمة أو حضارة، وهذا من عوائق النهضة بالأمة.

التوصيات: يوصي الباحث بالآتي:

- ١- المراجعة الجادة لأسباب الضعف التي ألحقت بالأمة وما هي عليه من هوان وتفكك وتمزق، ذلك أن الزمن الغابر بما تخللته من مأس وفواجع، وكوارث كافٍ لأخذ العبرة، لذا يجب العودة إلى جادة الصواب وإلى أن تكون الأمة خير شاهد وخير أمة أخرجت للناس، وهو أمر في غاية الأهمية، فذلك هو طريق التجاوز للماضي والمضي نحو الحاضر والمستقبل إن صدقت النوايا، بوصف أمة القرآن هي الشاهد

على الكتب السماوية السابقة، وجماع رسالاتها، فالإسلام جاء محققاً الكمال والاكتمال لتاريخ النبوة الخاتمة للرسالات السماوية والمشروع الإلهي والأخير لأهل الأرض، على اختلاف أجناسهم وألوانهم.

٢- يجب تصويب مسيرة الأمة والكشف عن علل التدين التي ألحقت بها وكانت سبب سقوطها، ليكون ذلك استثناءً وبياناً وهدى وموعظة وتقوى للأمة الخاتمة التي لا يتحقق قطعاً - شهودها ما لم تتعرف على قانون الحركة المتمثل في مشروع الله (القرآن الكريم) الذي هو مصدر عز الأمة ما تمسكت به قولاً وعملاً، أو سقوطاً متلاحقاً إن هي جعلت منه ظاهرة صوتية لا غير. قال الإمام الحسن البصري رحمه الله: " نزل القرآن ليُتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً" (مفتاح دار السعادة: ج ١، ص ١٨٧).

يجب إبراز أن المنهج الإلهي هو أعلى ثقافة وليس هناك أسمى غاية وهدفاً من غايات يرسمها القرآن الكريم فهو مشروع شامل يتناول مظاهر الحياة كلها، وهو دولة ووطن وحكومة وأمة، وهو خلق وقوة، ورحمة وعدالة، وثقافة وقانون، وعلم واقتصاد، ومادة وثروة، وكسب وغنى، وجهاد ودعوة، وعقيدة صادقة، وعبادة صحيحة. وهذا ينهض به العلماء الربانيون والرساليون الذين يقع على عاتقهم التوضيح والبيان بالخروج من هذا التيه المتلاحق لبناء حضارة مستدامة وفقاً للاستخلاف الإلهي للإنسان إجمالاً بدون استثناء لأنهم لآدم في الخلقة سواء.

المراجع:

- أبو داود.
- ابن الأمير الصنعاني، سبل السلام، ج ٣، مكتبة الجيل الجديد، له شواهد بألفاظ تفيد هذا المعنى.
- ابن منظور (٢٠٠٥)، لسان العرب: ج ٧، دار صادر، ط ٤.
- الغزالي (٢٠٠٢)، حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وعلان الأمم المتحدة: دار الدعوة، ط ٥.
- الشيخ/ حسين الصفار (٢٠٠٢)، نهج المساواة، مجلة الكلمة، العدد ٣٦.
- د. عبدالكريم عثمان (١٩٨٤)، معالم الثقافة الإسلامية: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١.
- د. محمد الزحيلي (١٩٩٥)، التكريم الإلهي للإنسان، دار القلم، دمشق، ط ١.
- عبدالوهاب الكيالي (١٩٨٦)، موسوعة السياسة: ج ٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١.
- د. محمد الزحيلي (٢٠٠٨)، حقوق الإنسان في الإسلام: ط ٥، دار ابن كثير.
- د. يوسف القرضاوي (١٩٩٧)، الخصائص العامة للإسلام: مؤسسة الرسالة، بيروت.
- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل: حديث رقم (٢٣٥٤٨).
- سيد قطب، معالم في الطريق: بدون دار طباعة.
- د. سعيد اسماعيل علي (٢٠١١)، المواطنة في الإسلام: دار السلام للطباعة، مصر، ط ١.
- صفي الرحمن المبار كفوري، الرحيق المختوم: دار الوفاء، مصر، ط ١.
- د. مصطفى الشكعة، اسلام بلا مذاهب: الدار المصرية اللبنانية.
- البخاري.
- مسلم.

- سيد قطب (١٩٦٨)، العدالة الاجتماعية: ط ٨.
الطحاوي، مشكل الآثار .
- الغزالي، كتاب إحياء علوم الدين، مركز نور الإسلامي، الاسكندرية.
عمر عبيد حسنة (١٤٢٧هـ)، كتاب الأمة: العدد ١١٤، المقدمة.
- الشيخ محمد عبده (١٩٩٣)، نهج البلاغة: تحقيق، مؤسسة الأعلمي للطباعة، بيروت، ط ١، ج ٣.
المنهاج (٢٠٠٣): العدد ٣١.
- حقوق الإنسان في الإسلام: لمجموعة من الدكاترة.
عبدالكريم عثمان (١٩٨٤)، معالم الثقافة الاسلامية: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١١.
مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا.
- ابن الأثير (١٩٨٩)، الكامل في التاريخ: ج ٢، مؤسسة التاريخ العربي بيروت.
تحقيق قناة المسيرة لأنس القاضي.
مجلة الكلمة (٢٠٠٢): العدد ٣٢.
- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج ٢.
أحمد مختار عبدالحميد عمر (٢٠١٩)، معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق، ج ٢، ط ١، عالم الكتب.
حياة محمد (١٩٦٨): محمد حسين هيكل، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٥٥.
عمر عبده حسنة (١٤٢٨هـ)، كتابة الأمة العدد ١٢١.
- سيد قطب (١٩٦٩)، العدالة الاجتماعية في الاسلام: ط ٢.
حياة محمد المقدمة للشيخ/ محمد مصطفى المراغي.
الشيخ/ محمد الغزالي، فقه السيرة.
- د. محمد سعيد البوطي (٢٠٠٥)، فقه السيرة النبوية: دار الفكر، دمشق.
دروس من سيرة الرسول الأكرم صلوات الله وعلى آله: سلسلة المعارف الإسلامية، لمركز البحوث والدراسات
الإسلامية، الجمهورية اليمنية (٢٠٠٥).
- أحمد قائد الشعبي، وثيقة المدينة المضمون والدلالة.
سيرة ابن هشام.
ابن حبان.
- ابن سعد، الطبقات الكبيرة: ج ٢.
علاء الدين الشاذلي الهندي، كنز العمال: ج ٣.
- الامام محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الاسلامية: دار الفكر العربي، بدون.
محمد يحيى سالم عزان (٢٠٠٠)، حديث افتراق الأمة تحت المجهر، مجلة المسار: فصلية ثقافية تصدر عن
مركز التراث والبحوث اليمني، العدد الأول لعام.
- يحيى قاسم أبو عواضه، أنصار الله المنهج والقيادة: ط ٢.

- الامام زيد: أبو زهرة، المكتبة الاسلامية، بيروت، بدون تاريخ.
- محمد محفوظ (٢٠٠٣)، تقوب من الوعي الاجتماعي: مجلة الكلمة العدد ٤٠.
- محمد محفوظ (٢٠٠٤)، المواطنة والعدالة السياسية: مجلة الكلمة العدد ٤٥.
- حسن الصغار (٢٠٠١)، السلم الاجتماعي مقوماته وحمايته: مجلة الكلمة العدد ٣٢.
- الخطيب عن ابن مسعود ج ٨.
- النسائي.
- محمد الزحيلي، التكريم الإلهي للإنسان.
- سيد قطب (١٣٩١هـ)، في ظلال القرآن: ج ١، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٢.
- دحان أشرف همدان، السلم الاجتماعي: ضرورته ومبادئه في ضوء الشريعة الاسلامية: جامعة بنجاب لا هور الهند.
- عمر عبيد حسن (١٤٢٨هـ)، كتاب الأمة: العدد ١٢١، الحضارة الاسلامية جذور وامتداد.
- عمر عبيد حسنة (١٤٢٦هـ)، كتاب الأمة العدد، عولمة الجريمة.
- محمد دكير (٢٠٠٣)، مجلة المنهاج: العدد ٣١ التدابير الوقائية من الجريمة في الشريعة الاسلامية.
- زكي أحمد (١٩٩١)، الحركة الاسلامية ومعالم المنهج الحضاري: دار البيان العربي، لبنان، ط ١.
- أحمد الخليلي (٢٠٠٧)، اعادة صياغة الأمة: مكتبة الجيل الواعد، عمان.
- عبد الحميد أحمد أبو سليمان (١٩٩٤)، أزمة العقل المسلم: الدار العالمية للكتاب الاسلامي، الرياض.
- الماوردي، الأحكام السلطانية.
- عبدالقادر عودة، التشريع الجنائي: ج ١.
- الحر العاملي، وسائل الشيعة: رقم ٢١١٧٦.
- نابي بوعلي، البدائل العملية لمواجهة المشروع الطائفي: جامعة معسكر الجزائر.
- مجلة آفاق الحضارة الاسلامية.
- موسى الهادي الإحسائي (١٩٨٨)، الطائفية سلاح العدو الأخير الخطير: دار النهل الطبعة الأولى.
- ابن القيم، مفتاح دار السعادة: مكتبة الرياض الحديثة، ج ١.